الباب الأول

حياته

الفصل الأول

اسمه ومولده وأسرته

اسمه ومولده :

هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمى الزمخشري ، وكنيته أبو القاسم، لقب بجار الله؛ لأنه أقام في مكة مدة مجاورا البيت الحرام ، كما لقب بفخر خوارزم.

ولد بزمخشر، يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة من الهجرة (١٩ مارس سنة ١٠٧٥م) .(١)

أسرته :

لايذكر المؤرخون شيئا ذاغناء عن أسرة الزمخشري ، وليس أمامنا إلا أن نتنسم بعض أخبارها مما قاله هو عنها فى شعره، وإن كان ذلك قليلا جدا .

يمكن أن نقول : إنه ينتمى إلى أسرة ذات ورع وتقوى، عرف الناس عنها تعففها عما حرم الله ، نستشف ذلك من هذين البيتين اللذين قالهما مستغفرا الله؛ لأنه نسب بالخمر وتحدث عنها .

١- انظر فى ترجمته : معجم الأدباء ١٢٦/١٩ والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٢٧٤/٥ والمختصر فى أخبار البشر ١٦/٣ وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢٧٩/٢ والأنساب ورقة ٢٧٧ وإنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٦٥/٣-٢٦٦ ومفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ٩٧/٢ - ١٠٠ واللباب في تهذيب الأنساب ٥٠٦/١-٥٠٧ والطبقات السنية في تراجم الحنفية ١٢٥/٤ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١٦٠:٢ - ١٦١ والفوائد البهية في تراجم الحنفية ٢٠٩ ، ٢١٠ ومرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ٢٦٩/٣ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١١٨/٤ - ١٢١ والأعلام ٥٥/٨ وتاريخ آداب اللغة العربية ٤٨/٣ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٢١٥/٥ ومعجم المؤلفين ١٨٦/١٢ وقد انفرد صاحب بغية الوعاة بجعل ولادته فى سنة ٤٩٧ هـ وهو خطأ لعله من تحريف النساخ .

أستغفر الله أنّى قد نسبتُ بها ... ولم أكن لحميّاها بذوّاق
ولم يذقها أبى كلا ولا أحد ... من أسرتى واتّفاق الناس مصداقى(١)

أما أبوه فيخبرنا صاحب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم» أنه كان إماما بقرية زمخشر .(٢)

وهو فى شعره يتحدث عن أبيه فى مناسبتين :

الأولى : نعرف منها أنه وقع في أسر مؤيد الملك بن نظام الملك، فهو يستعطفه ليطلق سراحه من سجنه رحمة بأطفاله الضعفاء ورعاية لفضله وشبابه، قائلا :

أكفى الكفاة مؤيّدَ الملك الذى ... خضع الزمانُ لعزّه وجلاله
ارحم أبى لشبابه ولفضله ... وارحمه للضعفاء من أطفاله
ارحم أسيراً لو رآه من العدا ... أقساهم قلبا لرقّ لحاله(٣)

ولانعرف لماذا سجن مؤيد الملك والد الزمخشرى ؟ ولانعرف إلام انتهى أمره ؟ ولكننا يمكن أن نقول : إن هذا الوالد كان لايزال شابا حين سجنه مؤيدُ الملك، وإنه كان معروفا بفضله .

الثانية : مناسبة رثائه وقد قال فيها قصيدة طويلة، بكاه فيها بكاء حارا وعدد فضائله، ومنها :

فقدتهُ فاضلا فاضت مآثره ... العلم والأدب المأثور والورعُ
أخا طباع مصفّاةٍ مناسبةٍ ... ماء السحابة مافي بعضها طبَع
وذا حقائق لافى لحظه طلب ... لغير رُشْدٍ ولافى لفظه فدَع
لم يألْ ماعاش جدّا فى تقاه ، يرى ... أنّ الحريص على دنياه منْخدَع
صام النهار وقام الليل وهْوَ شجٍ ... من خشية الله كابى اللون ممتقع

١- الديوان ٢١٦ .
٢- مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠
٣- الديوان ٣٨٩ .

من المروءة في علياء ، منسعِ صدرا وإنْ لم يكنْ فى المال متّسع

قريب عهد بوخط الشيب عارضُه إثر الشباب ووحف الليل متبع(١)

ومنها نعرف أن أباه كان فقيرا قليل المال ، كما كان فاضلا صاحب علم وأدب وورع وزهد، وأنه مات إثر الشباب فى أول مرحلة الشيخوخة .

فإذا تقدمنا مع أبيات القصيدة وجدنا فيها مايدل علي أن الزمخشري كان بعيدا عن أبيه حين مات ، ولعله كان مرتحلا لطلب العلم ، مما زاد ألمه وحسرته كما يقول :

وإنّ ممّا قرانى حسْرةً وأسَى وضافنى الكربُ من جرَاه والوجعُ

أن عاقنى شحْطُ دارٍ عن تفقّده حتى مضى وهْو من ذكراى ملتذع

ياحسْرتا أننّى لم أروغلّته وغلّتى بزمان فيه نجتمع

قد كنتُ أشكو فراقا قبلُ منقطعاً حتى أتيح فراق ليس ينقطع(٢)

وأمّا أمه فانه يذكرها حين يسأله الدامغانى الفقيه الحنفى ببغداد عن سبب قطع رجله فيقول : دعاء الوالدة ؛ وذلك أننى فى صباى أمسكت عصفورا وربطتُه بخيط فى رجله ، وانفلتَ من يدى فأدركته وقد دخل فى خَرْق ، فجذبتُه ، فانقطعت رجلُه في الخيْطِ ، فتألمت أمى لذلك وقالت : قطع الله رجلَ الأبعد كما قطع رجله ، فلما وصلتُ إلى سنّ الطلب رحلتُ إلى بخارى لطلب العلم فسقطتُ عن الدابة فانكسرت الرجل ، وعَمِلتُ عملا أوجب قطعَها .(٣)

وإذا كان لهذه القصة من دلالة علي ماتصفت به هذه الأم فإنها تدل على

١- الديوان ٢٤٨ ٢- الديوان ٢٤٩

٣- وكانت رجله اليسرى قد قطعت فى صباه ، واتخذ رجلا من خشب ، وكان يلقى عليها ثيابه الطوال فيظن من رآه أنه أعرج . قيل فى سبب قطعها أقوال أخر، منها أنه أصابه خراج فى رجله فقطعها ، ومنها أنه أصابه برد الثلج فى بعض أسفاره بخوارزم فسقطت رجله. انظر معجم الأدباء ١٢٧/١٩ والطبقات السنية ١٣١/٤ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١١٩/٤ .

تقواها وعلى الرحمة التى طُبِعَ عليها قلبُها ، وعملت على غرسها فى ابنها منذ صِغره ، فقد آلمها أن يعذّبَ هذا العصفور ، ورق قلبُها لهذا الطائرِ الضعيف رقة تضاءل بجانبها حبها لابنها العابث فنهرته داعية عليه بقطع رجله، وكأنها أرادت بهذا الدعاء أن تذكره بالإله العادل الذى يحاسِبُ المعتدين ويقتصُّ للمظلومين من الظالمين .

وأكبرُ الظن أن هذه الأم قد عاشت بعد وفاة الأب ، وأنها هى الشفيقة الشمطاءُ التى تعنيها حبيبةُ الشاعر حين أرادت أن تثنيه عن سفر هَمّ به ، فذكّرته بها قائلة له :

فإذا جفونُك خاطها ... طيبُ الكرى ونعمتَ بالكْ

قامت تناجى الله طو ... ل الليل تشكرُ ما أنالكْ

ومتى أحسَّتْ فترة ... بك كيف لو رأت اعتلالكْ

طافت مُروِّعة بتفـ ... ـدية وتعويذ حَوالكَ

رَوْحُ المعيشة زائل ... عنها إذا سمعت زِيالك

وتُرِنُّ مثلَ القوس إن ... سدَّدْتَ من عزم نبالك

ألْقِ العصا فى بيتها ... وارفض مسيرك وانتقالكْ(١)

وحين تموت يرثيها بأبيات منها :

ياحادثات الدهر أُمّى بعدما ... أدركت أمى بالردى مَنْ شيت(٢)

ولعلها المقصودة بالرثاء في قصيدته التى يقدم لنا فيها أما صالحة انتقلت الى جوار ربها ، فحلت دار السلام ، ونزلت جنة الفردوس ، ولكن ماعليه الابن من وجد وبرُحاء لفراقها يؤلمها فترسل إليه هذه القصيدة تحثُّه على الصبر ، وخلعِ ملابس الحداد ، وترك الأحزان ، فقد بكاها شهرا كاملا وهو بذلك قضى فوق

١- الديوان ٣١٩

٢- الديوان ٣٨٤

مايجب على الأبناء ، ثم تعدد له ألوان النعيم التى تتقلب فيها فى دارها الأخرى . ومن أبياته فى هذه القصيدة:

أأبا الوفـــــا وفّيت أى وفـــــاء وقضـــيت فـــوق شـــرائط الأبناءِ
ولبثـت شـهرا كـامـلا مـستـعبـرا قـــــــرِحَ المآقى خافـقَ الأحشـاءِ
إيها فقد حققتَ فـــــىّ جميع مـــا يحكـــون فـى صخْرٍ عن الخنـــساءِ
وتـعـزّعـنـى واسـل سـلـوة صابـــر وتـخـطّ قـولـك لات حـينَ عـزاء
أبنىّ إنّى فى الجِنـــــان مقيمـــةٌ أختـــال بين ظليـــلـــة الأفـــياءِ

ثم تقول :

أعـززْ علـىَّ بـأنْ تـطـــول مَسَرَّتِى وتـطـيـل أنـت تـنـفّسَ الـصُعـداءِ
كـنـاً قـسـيـمـىْ فـرحـة ومـسـاءةٍ ولـقـد سُرِرْتُ فـلِمْ أَسـيـتَ ورائـى
لاتجـعـل الـسـراء عـنـدى - إنـنـــا أصلٌ وفـرعٌ - علـةَ الـضـّراءِ(١)

وكما سلبه الموت أباه وأمه تخطف عددا آخر من أقربائه، الواحدَ بعد الآخر، يذكرهم الزمخشرى فى مجال الشكوى أو الرثاء .

فيشكو النوائب التى حرمته جده وأخاه وعمه وخاله فيقول :

ياخـيـرَ خالين إنّى بعـــد فقْد كمـــا مـــــن لوعة وأسى فى شـرّحالين
وإن فرقـــةَ خـــالٍ واحـــد حَطَمَتْ ظهْرى ، فكيف إذا فارقتُ خالينِ ؟(٢)

ومن هذه الصورة المتواضعة التى قدمتُها لأسرة الزمخشرى مستشفة من شعره يتضح أنها كانت أسرة فقيرة متدينة لها حظ من علم وأدب ، وأنه قد فقد أكثر أفرادها فى حياته .

١- الديوان ٣٨٥ .
٢- الديوان ٢٥١ .

الفصل الثانى

رحلة عمره

الصبى الشغوف بالعلم :

ولد الزمخشرى ونشأ فى عهد السلطان «جلال الدين أبى الفتح ملكشاه» وعهد وزيره «نظام الملك» ، وهو عهد حظى بالاستقرار السياسى والأمن الاجتماعى والنهضة العلمية؛ وذلك بفضل ماعرف به السلطان من الشجاعة وصواب التدبير وحسن السيرة ، وماعرف به الوزير من حسن السياسة ورعاية أهل العلم والفضل ، وعن هذا الجانب من سيرته يقول العماد الأصفهانى «وفى أيامه (أي نظام الملك) نشأ للناس أولاد نجباء ، وتوفر على تهذيب الأبناء الآباءُ ليحضروهم فى مجلسه ، ويحظوا بتقريبه ، فإنه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلحُ له بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل ، ومن وجد فى بلد قد تميز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ، ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب ، وفى عصره نشأ طبقات الكتّاب الجياد ، وفرعوا المناصب ، وولوا المراتب ، ولم يزل بابه مجمع الفضلاء ، وملجأ العلماء ، وكان نافذ البصيرة ينقّب عن أحوال كل مهم ، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته ، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه ، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ، ورتب له مايكفيه من جدواه ، حتى يتطلع الى إفادة العلم ونشره ، وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيى به حقه ، ويميت باطله .(١)

فى هذا العهد الزاهى ولد الزمخشرى وعاش فترة صباه ، فلا عجب أن يوجهه أبوه وجهة العلم ، لاسيما أن هذا الأب كان إماما بالقرية صاحبَ علم ودين، ولاشك أن الابن قد استفاد من علم أبيه في سنيه الأولى التى قضاها بزمخشر .

وما إن يبلغ الطفل سن الطلب حتي يعده أبوه للرحيل إلى بخارى ولكن القدر

١- تاريخ دولة آل سلجوق ٥٤ .

لايمهل هذا الصبى ، وتقع الحادثة التى انتهت بقطع رجله، ويتألم الأب ، ويشفق على الابن من السفر والاغتراب ، ويرى أن يعلمه الخياطة؛ لأنه صار زمِنا مبتلي ، غير قادر على طلب العلم والسعى إليه ، ولكن الابن يقول فى إصرار وقوة عزم وتحد للصعاب : احملنى الى البلد واتركنى ، ويحمله أبوه إلى البلد[1] ويطلب التلميذ العلم فى خوارزم وبخارى وغيرهما من حواضر الدولة ومراكز الثقافة .

الشاب الطموح:

لاتكاد المراجع تذكر شيئا عن حياة الشاعر فى مرحلة شبابه ، اللهم إلا إشارة عابرة إلى أنه «كان فى الحادى والأربعين من عمره ينادم الوزراء والملوك ويمدحهم، ويتنعم بالدنيا إلى أن أراه الله تعالى رؤياه ، فكانت سبب انقطاعه عنهم، وإقباله على أمر دينه»[2] وسوف أتحدث عن هذه الرؤيا وما أعقبها بعد ذلك ، ولكن يهمنى هنا أن أقول: إنها تعد حدا فاصلا بين طورين متميزين من حياة الشاعر : طور الشاب المقبل على الدنيا المتنعم بطيباتها ، وطور الشيخ الزاهد فيها المقبل على أمور دينه .

وأمام هذا الغموض الذى اكتنف حياة الزمخشرى فى طورها الأول لانجد أمامنا إلا شعره، نحاول أن نستضئ به فى تقديم تصور لهذا الطور من حياته .

أ- اتصاله بكبار الشخصيات فى الدولة :

عرفنا الزمخشرى منذ صغره قوى الإرادة ، شديد الطموح ، محبا للعلم ، سعى إليه فى ظروف شديدة الصعوبة ، فالأسرة فقيرة لاتقوى على تحمل أعبائه، وهو ضعيف الجسم سلبه القدر إحدى رجليه ، ولكن ذكاءه وإقباله على العلم وحسن خلقه كان خير معين له فى هذه الظروف ، فقد جعلته هذه الصفات أثيرا عند أساتذته لاسيما أستاذه أبو مضر .

وفى شعر الزمخشرى مايدل على أنه كان يحيا حياة صعبة فى هذه الفترة،

١- مفتاح السعادة ٢/١٠٠ .

٢- مفتاح السعادة ٢/١٠٠ .

وعلى أن استاذه أبا مضر الضبى قد وقف بجانبه يوسع عليه ماضاق من سبل عيشه ، ويخفف عنه شدائد حياته ، ومن ذلك قوله يشكو حاله إلى نظام الملك :

إليك نظامَ الملك شكواى فاستمع ... إلى بثّ مجذوذ المعايش ضنكها

طريح خطوب كلّ يوم تنوبه ... ببائقة تنْحى عليه ببرْكها

ولو لم يل الضبىّ عنى عراكها ... لغالتْ يدُ البلوى أديمى بعرْكها(١)

فكان الضبى له الأستاذ والأب يساعده بماله ، ويتعهده بعلمه وأدبه ، وحين شب وآنس فيه المقدرة والكفاءة لم يبخل عليه هذا الاستاذ البار بجاهه فقدمه إلى وزراء الدولة من أسرة نظام الملك ، ولاشك أن مكانة أبى مضر لدى هذه الأسرة قد ساعدت الزمخشرى فى توطيد صلته بهم، ويؤكد ذلك أننا نرى الزمخشرى يتشفع بهذا الأستاذ لديهم بعد وفاته فيقول لأحدهم :

ثنائى لصدْر الملك - ماعشتُ - دائمٌ ... وإنّ دعائى مثله فى دوامه

جعلتهما وردى نهارى وليلتى ... كفعل الفتى فى صومه وقيامه

وكان فريد العصر عبدا مقرّبا ... وما أنا إلا هضْبة من شمامه

وقد أوجب المولى لنا فى قبيله ... قضاء ذمام الحر بعد حمامه(٢)

ووسع الزمخشرى اتصالاته بكبار رجال الدولة وارتحل إليهم فى خراسان وأصفهان وغيرهما فمدح غير أسرة نظام الملك الخليفة العباسى المستظهر بالله(٣) ، والسلطان السلجوقى سنجر(٤) والخوارزمشاه محمد بن أنوشتكين،(٥) ومجير الدولة الأردستانى كاتب الرسائل المشهور(٦) وغيرهم من كبار الشخصيات فى عهده ، وله فى شرف الملك محمد بن منصور أبى سعد المستوفى الخوارزمى مدح كثيرة .(٧)

١- الديوان ٥٣ ... ٢- الديوان ٥٠ .

٣- الديوان ٣٩ . ... ٤- الديوان ٣٦٣ .

٥- الديوان ١١٢ ... ٦- الديوان ٥٤ .

٧- الديوان ٦٦، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ .

ولكن هل سعد الزمخشرى بهذه الاتصالات ؟ وهل حقق ماكان يطمح إليه فى هذه الفترة ؟

لقد نال الزمخشرى جوائز الممدوحين، وشعره الذى يشكر فيه نعمهم عليه كثير ، ومنه قوله فى أحد ممدوحيه ولعله شرف الملك :

يمينُ عبيد الله لست أُغبّها ... شكرا ، وليس يغبُّنى نعماؤُها

فى كلّ يوم منه سيبٌ فائضٌ ... وقصيدة منى يطيب ثناؤها

لازلتُ مثلَ الأرض أُنبتُ شكرَه ... ويمينه تهمى على سماؤها(١)

وصاحب «إنباه الرواه» يخبرنا بأن مجير الدولة الأردستانى قد خلع عليه، وأعطاه فرسا وألف دينار جائزة له على قصيدته فيه التى بدأها بقوله :

أياحبّذا سُعدى وحُبّ مقامها ... وياحبّذا أن تستقلّ خيامها(٢)

وحين يحدثنا عن أيام شبابه بعد مضّيه يذكر ألوان النعيم الذى كان يتقلب فيه حينئذ فيقول :

فللّه وقت لم يلمّ بلمّتى ... مشيبٌ وسربالُ الشبابِ قشيبُ

وماغزلى إلا كروض يرودُه ... غزالٌ أحم المقلتين ربيبُ

ويرتعُ فيه من مَها الإنس جُؤذَرٌ ... صَيودٌ بسَهْمَىْ ناظريه مُصيبُ

ليالىَ فضلى حيثُ شئتُ منزّلٌ ... وشعرى له الشعرَى العَبورُ حبيب

فما يتعاطى قوس فهمىَ مُفلقٌ ... ولاسيفُ قولى ينتضيه خَطيبُ

على انثيالٌ للصلات يُفيضها ... علىٌّ محبٌّ للثناء وهُوب

ولى خِلَعُ شتّى سحبتُ فُضولَها ... وكل صديق لى لهن سَحُوب

ويارب يوم أُهدِيتْ لى وصيفةٌ ... من اليافثيّات اللاحِ لَعوب

١- الديوان ٣٩٩

٢- إنباه الرواة ٣/٢٦٦ .

تضايقت العينان منها وفيهما مجال لِسِحْرِ البابلى رحيب
يلوح لنا بعضُ السواد بلحظها وفى ضحكها كل السواد يغيب
فياطيب أيام وياطيب ذكرِها ألا إن عيشى بعدهُنّ جديب(١)

ومع هذا فإننا نطالع فى كثير من مدائحه -ومعظمها من نتاج هذه الفترة- إحساسا بالألم وشعورا بالظلم والضياع ، ونقدا لعصره الذى آخى الجهلاء فأعطاهم مالايستحقون ، وخاصم الفضلاء من أمثاله فغمطهم حقوقهم .

ومن قصائده التى تطالعنا فيها هذه الأحاسيس والخواطر قصيدته إلى صدر الكفاة وفيها يقول :

خليلىّ هل تُجدى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص يصيب منازلا أخو الفضل محقوقٌ بتلك الأفاضل
كفى حَزَنا أن يرْغِمَ الحلم والحجا تصدُّرباد طيشهُ غيرُ عاقل
ومن لى بحقّى بعدما وفّرت على أراذلها الدنيا حقوقَ الأماثل
كذا الدهرُ ، كم شوهاء فى الحلْى جيدها وكم جيد حسناءِ المقلَّد عاطل
ومما شجانى أنّ غُرَّ مناقبى تغنّى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى وسارت مسير النيّرات رسائلى(٢)

ثم يقول :

أحظى منقوص ولست بناقص وكم كامل حظا وليس بكامل
وما الشأن فى هذا الحقير ووزنه ولكنه استحقاق وزْنِ الفضائل
فلا ترضَ ياصدرَ الكفاة بأن ترى أعالى قومٍ أُلْحِقُوا بأسافل(٣)

١- الديوان ٩٩ .
٢- الديوان ٧٠ .
٣- الديوان ٧١ .

ويقول :

ولم أدر أنّ الأرذلين يرون ما تمنّوا ، وأنّى لستُ أحظى بطائل(١)

فما حقه الذى ضاع ؟ وماحظه الذى نقص وقد أخذ جوائز الممدوحين كما سبق أن قلت ؟

لم تكن الجوائز كل مايرجوه الشاعر من ممدوحيه ؟ وإنما كان يطمح فى المقام الأول إلى منصب من مناصب الدولة يرفع شأنه ، ويسمو به إلى المكانة التى أعد نفسه لها بعلمه وأدبه ، فلا غرو أن وجدناه فى الموقف الواحد يشكر ويشكو ، يشكر نعم ممدوحه وجوائزه ويشكو ضياع حقه وعدم التقدير لفضله ، كما نجد هذه الأبيات التى يخاطب بها ربيب الملك :

إليك ربيبَ الملك أشكر أنْعُما ليُمنـاك هطّالا علىّ ربابهُا

وقائمةٌ منّى لك الدعوةُ التى يجوبُ السمواتِ العلا مستجابُها

وأشكو إلى ترشيحك الفضلَ أننّى بأرض أطارتْ حقَّ فضلى عُقابُها(٢)

فلما أخفق فى الظفر بما يطمح إليه ملأ الهم قلبه ، وطفحت نفسه غضبا على المجتمع وسخطا على الحياة لوّنا معظم شعره بهذا اللون القاتم الحزين ، ولم تبدد جوائز الممدوحين حسرته ، ولم تُنسه الإحساس بالجَور الذى وقع عليه ، بل إنه كان يجد فيها وفيما ينظمه من أجلها ذلاً وتملقا لايليقان بأمثاله من الأحرار الفضلاء ، ولولا الضرورة الملحة لما سعى إلى تلك الجوائز ولما أخذها ، يعبر عن هذا الإحساس قوله فى ختام قصيدته السابقة :

وحسْبك أنّى ماعملت قصيدة سوى هذه فيها تملُّق سائل

ولكن إذا ماعض بالحر دهرُه تغير عن عاداته والشواكل(٣)

ولم يكن الممدوحون كرماء معه دائما ، فقد يرتحل إلى أحدهم ، مكلفا نفسه

١- الديوان ٧١ . ٢- الديوان ٤٦ .

٣- الديوان ٧١ .

مالايطيق أمثاله من مشقّات السفر ، ويمدح فلايكون جزاؤه إلا الإعراض عنه، أو الوعود المتكررة أو المنحة القليلة التى لاتغنى شيئا ، وحاجة الشاعر لاتعفيه من أن يركب الصعب فيعيد الكرّة – على الرغم من نفسه الحرة الأبية – مجددا المدح مذكرا بما سبق من الوعود معاتبا على المماطلة معتذرا عن الإلحاح، من ذلك قوله لأحد ممدوحيه :

يامَنْ مكارِمُهُ غُرٌّ محجَّلةٌ ... كأنّها فى اشتهار بلْق أفراس

الرأس أنت فلا تستنكرَن إذا ... صُدِّعْتَ ، هل يُنْكر التصديعُ للراس؟

ماذا التثاقل عن برّي وتَكْرِمَتِى ... وأنت من نفَر فى البِر أكياس ؟

أوحشتنى بِمطال طال مُدتُهُ ... وكان يمكن بالتعجيل إيناسى

أنطق لسانى بإحسانٍ أقوم به ... خطيبَ شكرٍ فقد طولّتْ إخراسى(١)

ويطالعنا فى قصيدة أخرى، وقد ارتحل إلى خراسان مادحا مؤيّد الملك، مذكرا إياه برحلته السابقة إليه فى صيف العام الماضى، يقطع الفيافى، ويصطلى بنيران الشمس، ومع هذا فقد أخفق مسعاه فلم ينل منه بغيته ، ثم يرجوه أن ينعش جدّه فى هذه المرة فيقول :

إليك سقتُ ركابى قبل عامك فى ... صيف يذيب دماغ الضَبِّ صيخدُه

قطعت خَرْقا كأن الآل يهزأ بى ... ضُحى إذا مازَها الأشخاص فَدْفَدُه

حتى خدمتُكَ بالمدح الذى خفقتْ ... به الرياح وقام الدهرُ ينشدُه

من الكلام الذى مافى زمانك مَنْ ... يحلّ بعضَ معانيه ويَعْقِدُه

فى مجلس رُتَبُ السادات قاطبةً ... فيه وكانت وفود الشرق تشهدُه

وكان عَقْدُ رجائى أن أفوزَ بما ... ينالُ مثلىَ عند الحرِّ يقصدُه

١- الديوان ٢٤١ .

لكن أبى ذاك جدٌّ لا انتعاش لـــهُ ولـم تـــزل دولُ الدُّنيـــا تنكدهُ

فإن تشأ - ولك الدنيا مساعـدة - نعـشْت جدّى بإنعام تُجَّددُه(١)

وهكذا لم يسعد الشاعر باتصالاته بكبار الدولة ، فقد ضنّوا عليه بالمنصب وأجاؤوه إلى المدح المستجدى ، وأكثروا مطاله ، وأقلُّوا نواله ، فجرحوا كبرياءه، وأدموا طموحهُ ، وأمدوُّا شعره بفيض من الشكوى المرة الساخرة .

وإن البون لجد شاسع بين شاعرنا حين استقبل الشباب طَموحا ، مُقبلا على الدنيا ، تَحْدوه آمالٌ كبار، يجد نفسه خيرَ كفء لها ، ولسانُ حاله يقول :

حركتُ فى طلب العلياء من هِممى وإنمّـــا يطلب العلياء أمثالـــى(٢)

وبينه حين ودّع هذا الشباب يائسا من دنياه ، كارها ماطبعت عليه من جور ولسان حاله يقول :

عفاءٌ على الدنيا طويلٌ لرفعها منا سمَهَا السُفلى على أسْنِماتها(٣)

ب- انصرافه عن الزواج:

لم يتزوج الزمخشرى ولم ينجب أولادا، فإذا أردنا أن نعرف سبب ذلك من شعره رأيناه يتحدث عن فساد الأولاد، وشقاء آبائهم بهم فى أكثر من موطن، من ذلك قوله :

تصفّحتُ أولاد الرجال فلم أكدْ أصـــــادفُ من لايفضح الأم والأبا

رأيتُ أبا يشـــقى لتربية ابنـــــه ويسعى لكى يُدْعى مُكِبّاً ومنجبا

أراد بـه النـشء الأعـز فمـا درَى أيـولـيـه حِجـرا أم يُعـلّيه منْكِبا

أخو شـقـوة مـازال مـركَبَ طـفـله فـأصـبح ذاك الـطـفـلُ لـلـنـاس مـركَبَا

١- الديوان ٢٣٥ .
٢- الديوان ٢٣٢ .
٣- الديوان ١١٤ .

لذاك تركتُ النسلَ ، واخترت سيرةً مَسيحيَّةً ، أحسنْ بذلك مذهبا(١)

فرغب عن الزواج ، حتى لايشقى بمثل هؤلاء الأبناء الذين يرهقون آباءهم صغارا ويفضحونهم كِبارا ، وعبثا ينصحه قومهُ لائمين إياه على ترك الزواج والنسل ، وفى ذلك يقول :

يُمَوِّهُ قومى بالتنصُّح لومَهُمْ وإن عناءً لومُهم والتنصُّحُ

يلومونني أني نأيتُ بجانبي عن النسْلِ ألوى عنه رأسى وأجمَحُ

أتَلْحَوْن لوأما على النسْلِ أهلَه ؟ إذاً لم يفدك القولُ فالصمتُ أصلحُ

كأنكمُ لم تسمعوا أنّ مَنْ له عِيالٌ شقىٌّ دهرَه ، ليس يُفلِحُ

قبيحٌ بمثلى والبنون - كما رأى - جنودُ فساد ، ليس فى الألف مُصْلِحُ

تصدُّ لنسلٍ مثلَهم ، إنّ فعل من يُولِّد فعّالَ القبائح أقبحُ

إذا ارتكب الابنُ الخليعُ فضيحةً فذاك لعمر الله للأب أفضحُ

وكلّ صنيع ليس للنفع جالبا وجرّ وجوه الضرّ فالترك أروح(٢)

وفى تعزية والد فى طفله الذى مات صغيرا يقول :

وأسعد الناس ناسٌ قط ماولدوا ولاغدوا لِخراب الأرض عُمارا

فلم يذوقوا بأولاد إذا انقرضوا ثُكْلاً ولا راعهم بيْتٌ إذا انهارا(٣)

فهو يرى أن أسعد الناس من لم ينجب ولدا ولم يبن دارا، فمثل هذا فى مأمن من أن يتألم لفقد ولده أو (تقوّض) داره .

وأغلب الظن أن هناك أسبابا أخرى وراء تركه الزواج لم يفصح عنها ، لعل منها فقره وفقدانه الاستقرار المادى بعد أن أخفق فى الظفر بمنصب يؤّمن حياته ، ولعل علته الجسمية بسبب قطع رجله جعلته يشعر بالضعف والعجز عن تحمل

١- الديوان ١٤٣ ٢-الديوان ٢٥٣.

٢-الديوان ١٤١ .

أعباء الزواج ومسئوليات الأسرة، ولعله كان يراها وصمة تنفر منه النساء ، وربما وقع له مايؤكد ذلك الإحساس فإن فى شعره مايوحى بذلك ، فحين يتغزل بسعدى ، ويصف حنينه إليها ، يتحدث عن عجزه عن الوصول إليها، ذاكرا ضعف جسمه، ومشيرا إلى ماأصيب به من قطع رجله، ثم يرجوها أن تغفر له هذه العاهات، ولاتعزف عنه بسببها، فله من فضله وتعففه مايستر مثل هذه المعايب التى لايد له فيها، فيقول :

يَحِنُّ إلى سعدى ودون مزارها ... صحاصِحُ بيدٍ دون بيدٍ صحاصحِ
ومن لأخى الجسم العليل بقطعها ... وأعيت على أهل الجسوم الصحائح
غَمَرتُ بفضلى والتعفّفِ وصمةً ... أصابت بها الأيام بعض جوارحى
فلا تنكرى أنّى أُصبتُ بمثلها ... فكم من فلول فى شِفار الصفائح(١)

ولعله يرمز بهذه البيد التى يضعف جسمه عن قطعها وصولا إلى محبوبته إلى تمنع الحبيبة عليه، ورغبتها عنه بسبب علته .

وفى موطن آخر يتحدث عن موقف سعدى هذا بما هو أكثر صراحة، فيقول :

لقد نظرتْ سُعدى إلى فأنكرت ... أمورا سواها بالنكيرة أجدرَ
فلاتسخرى من ساق رجلى وغمزها ... ففى ساق حالى موقعُ الغمز أظهرُ
ولاتضحكى من بغلتى وقُطوفها ... فأقطفُ منها جَدَّىَ المتعثِّرُ
وإنى وإن رثَّت بعينيْكَ بَزَّتى ... لَمِن تحتها بحرٌ جرتْ منه أبْحُرُ(٢)

ولعل عشقه للعلم والأدب ملك عليه أقطار قلبه وشغله عما سواهما ، فقد آثر أن يتخذ من دراسة العلم زوجا، ومن مؤلفاته بنين وبنات هم أحب لديه من أبناء الصُّلب ، يعبِّر عن ذلك فيقول :

بَنِىَّ فأعلِمْ بناتُ فكرِى ... حَصانُهم أُمة الدراسه
أبناءُ صِدْق لهم نفوس ... وُصِفْنَ بالفْضلِ والنّفاسه

١ـ الديوان ٨٥.
٢ـ الديوان ٨٣.

حـمـــاةُ عِرضـــي مـــحـــصَّنُوه فـــى كـــنـــف الـــصـــونِ والحِراســـه
بِرٌّ صـــريـــحٌ بـــــــــــلا عـــقـــوق خُلُقٌ ســـجـــيـــح بـــلا شـــكـــاســـه
مـــانـســـــلُ قـلـبـى كـنـسْلِ صـــُـــلـبـى مـن قـاس رد الـنُّهـى قِيـاسـه
مـــن ســـاس أبـــنـــاءه فـــإنـــــــــا لـــهـــؤلاء الـــبـــنـــين ســـاســـه(١)

ج- حظه من مرح الشباب ولهوه :

وهذا جانب لابد منه لاستكمال صورة شبابه، وهنا نجد سؤالا يطرح نفسه : أكانت حياة شاعرنا فى شبابه حياة العالم المتزمت التى تسير على وتيرة واحدة جادة صارمة ، أم كان يتخللها ساعات يفرغ فيها لنفسه ، فيخف إلى مواطن اللهو ويمرح مرح أمثاله من الشبان؟

فيما عدا شعره لانجد إلا ماقاله صاحبُ مفتاح السعادة فى عبارته التى سبق ذكرها «أنه كان ينادم الملوك والوزراء ويتنعم بالدنيا»(٢) .

وهذه العبارة - على إجمالها - تغرينا بأن نصدق بعض ماقاله فى شعره عن مرحه فى شبابه ، وحرصه على أن يأخذ حظه من اللهْو فيه ، فمنادمةُ الملوك والوزراء تتيحُ لصاحبها مشاهدة مجالس مرحهم ومواطن لهوهم عن كَثَب ، وقد يجد فى نفسه ميْلا لأن يشارك فيها بالقدر الذى تسمح به ظروفه، وقد سبق الحديث عن تنعمه بجوائز المدوحين، وذكرُ بعض ماقاله فى ذلك من شعر(٣) .

أما مرحه ولهوه فى شبابه فقد تغنى به فى كثير من شعره ، وعلينا أن نتحفظ أيما تحفظ حين نحاول أن نستمد من هذا الشعر بعض الخيوط لنسج صورة هذا الجانب من شبابه ، ذلك أن الكثير مما قاله فى هذا المجال يدخل فى إطار خيالات الشعراء ، وتحكمه نزعتهم إلى تقليد من سبقوهم من فرسان اللهو والعبث، مما يجعله بعيدا عن الارتباط بواقعهم وحياتهم .

١- الديوان ٦٤ . ٢- مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠ .
٣- انظر صفحة ٥٨ من هذه الدراسة .

إذا أخذنا ذلك كله فى الحسبان فإننا نجد فى بعض هذا الشعر من ملاءمة فطرة الشباب ومساوقة طبعهم مايرجح أنه تعبير صادق عن واقع الشاعر وحياته فى هذه الفترة من مثل قوله :

غبنُ علىَّ بطالاتى إذا فقدتْ ... فى عُنفوان شباب غيرِ مفقود

ماءُ الشبيبة لاتصفو مواردُه ... إلا بشرْبٍ من اللذات مورود

يومَ يمرُّ بلا لهو ولا لعبٍ ... ماذلك اليومُ من عمرى بمعدودِ

ما انسَ لا أنسَ أياما تصانعُنى ... بكل مضْطَمِر الكَشْحين مقدود

كم ارتشفتُ رضابا كالعقار وكمْ ... ألصقتُ خدِّى بِخَدِّ الكاعب الرُّود

يداى لادرَّ درِّى كم جعلتهُما ... وِشاحَ مثلِ قضيب البان أُملود[1]

ولايخفى مافى الأبيات من رُوح شابة مَرِحة تحرِص على حظها من لذات الحياة ولهوها، وإن كانت المبالغة قد اجتذبت الشاعر فى أبياته الثلاثة الأخيرة كما يبدو فيها .

وشعر الزمخشرى فى الغزل كثير ويدل على افتتانه بجمال المرأة ، وليس فى تركه الزواج مايؤيد عكس ذلك ، فإنه لم ينح هذا المنحى بغضا فى النساء أو زهدا فى متع الدنيا .

وليس لدينا مايؤكد أن كل ماقاله فى الغزل تقليد ، بل إن لدينا مايرجح أن بعضه كان مرتبطا بواقعه ، وأعنى بذلك شعرَه الذى تغزل فيه بنساء الترك اللائى أصبحن ظاهرة من ظواهر المجتمع فى عصره ، وقد أعجبته منهن العيون الضيقة بحوَرِها وفتورها فأثرهن على ذوات العيون النُّجْل مِمَّن شبَّبَ بهن الشعراءُ قبله ، فقال :

ألاقل لسعدى مالنا فيك من وطَرْ ... وماتَطّبِينا النُّجْل من أعْيُن البَقَرْ

١- الديوان ٢٢٠ .

فإن العيونَ الضيّقات وأهلها بهم علِقَتْ مِناَ الضمائِر والفكر(١)

ولعل عُبَيدَ الله قد عرف مافيه من ميْل إلى هذا النوع من النساء فأهداه وصيفة منهن كان فرحه بها عظيما ، ومما قاله شاكرا المهدى ومشببا بالهدية :

ياذا السعادات كم أسديْتَ عارفة إلىّ ، مهلاً فقد أكثرتَ حُسّادي
أروحُ منك على بِرٍّ وتكرِمة وأغتدى بين إرفاقٍ وإرفاد
أنجزتَ وعدى،وأهديت الوصيفة لى والحرُّ ليس له خُلْف لميعادِ
وصيفةٌ من بنات الترك واصفةٌ ظباءَ وجرةَ بالعينين والهادِى
تَسلُّ باللحظ سيا باتكا ، فإذا همّتْ بضحْكٍ تولتّه بإغمادِ
رمانتا صدرها لم يَبْدُ حجمُهما بلى بدالهما حجمٌ بلا بادى
أُزْهَى بها ، فأهزّ المنكبين كما تُزْهَى بقد كخُوطِ البان ميّاد
نُعماك روض ، وهذى ظبية سرَحَتْ فيه ، فيا حُسْنَ مرتادٍ ومرتاد
الآن أجعل تشبيبى بما ملكتْ يدى ، وأقعد من لهو بمرْصاد(٢)

وليس غريبا على الزمخشرى وهو فى ميعة الشباب أن يعشق الجمالَ وأن تكون له سويعاتُ لهو ومرح، يتخفف فيها من جد الحياة وصرامتها ، ولكننا لاننسى أنه كان العالم الفاضل الذى يحافظ على خلقه ودينه ، فإن كان لهو فهو اللهوُ الحلال الذى لايجرح خلقا ولايؤذى دينا ، ولكنه التنعم بالحلال من طيبات الحياة التى أتيحت له فى عهده، هذا الذى تنعم فيه بالدنيا كما قال صاحب مفتاح السعادة .

الشيخ الزاهد :

والزمخشرى يحدثنا عن هذا الطور الجديد فى حياته ، فيذكر الأسباب التى هيأت له ، وتاريخ بدايته ، والمعالم التى رسمها لحياته فيه، يأتى ذلك فى معرض

١- الديوان ٩٠ . (٢) الديوان ٢٢٣ - ٢٢٤ .

حديثه عن سبب إنشائه المقامات . حيث يقول :

«والذى ندبه لإنشائها أنه أُرى فى بعض إغفاءات الفجر كأنما صوّت به من يقول له : ياأبا القاسم ، أجلّ مكتوب ، وأمل مكذوب. فهب من إغفاءته تلك مَشْخوصا به ممّا هاله من ذلك وروّعه ، ونفّر طائره وفزّعه ، وضم إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامه ، وآنسها بأخوات قلائل ، ثم قطع لمراجعة الغفلة عن الحقائق ، وعادة الذهول عن الجدّ بالهزل ، فلما أصيب فى مستهل شهر الله الأصم(١) الواقع فى سنة اثنتى عشرة بعد الخمسمائه بالمرضة الناهكة ، التى سماها المنذِرة، كانت سبب إنابته وفيئته ، وتغير حاله وهيئته ، وأخذ على نفسه الميثاق لله : إن منّ الله عليه بالصحة أن لايطأ بأخْمَصه عتبةَ السلطان ، ولاواصل بخدمة السلطان أذياله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، ورفع العقيرة فى المدح بين أيديهم(٢) ، وأن يعفّ عن ارتزاق عطيّاتهم ، وافتراض صلاتهم(٣) ، مرسوما وإدرارا وتسويفا ونحوه ، ويجدّ فى إسقاط اسمه من الديوان ومحوه ، وأن يعنف نفسه حتى تقئ مااستطعمت فى ذلك فيما خلا لها فى سِنِى جاهليتها ، وتتقنّع بقُرصيْها وطِمْريْها(٤) ، وأن يعتصم بحبل الله ويتمسك، ويتبتّل إلى ربه ويتنسّك ، ويجعل مسكنه لنفسه محبِسا ، ويتخذه لها مخيسًا(٥) ولايريم عن قراره مالم يضطره أمر ذو خير لايجد الصالح بدا من تولّيه بخطوة ، وأن لايدرس من العلوم التى هو بصددها إلا ماهو مهيب بدارسه إلى الهدى رادع له عن مشايعة الهوى .....» (٦)

وشفى الزمخشرى من مرضته ، وكان وفيا إلى حد كبير بما عاهد عليه ربه ، فزهد فى الدنيا وأقبل على أمور دينه ، فكان من الورع وقيام الليل فى الرتبة

١- شهر الله الأصم : رجب ، كانوا يسمونه بذلك لأن السلاح لايقعقع فيه؛ لأنه من الأشهر الحرم .

٢- عُقِرَتْ رِجْل رَجُلٍ فرفعها وهو يصيح ، فضرب رفع العقيرة مثلا فى التصويت .

٣- افتراض العطاء : أخذه .

٤- الطمر : الثوب البالى

٥- المخيس : موضع التخيّس وهو السجن .

٦- مقامات الزمخشرى ٥-٧.

العليا[1] ، ووقف جهده على البحث في علوم الدين وتدريسها والتأليف فيها ، واهتم بعلوم اللغة والنحو لأنها وسيلة لابد منها لفهم علوم الدين .

لزم الزمخشرى بيته أربع سنوات بعد شفائه ألف خلالها كتبا مهمّة، منها المفصّل والفائق فى غريب الحديث .[2]

ثم هفا قلبه إلى الأماكن المقدسة ، فأغذّ السير إلى مكة مهاجرا إلى ربه ، عاقدا العزم على أن يضرب قبته بفناء بيت الله ، وأن يقيم فيه حتى يحين أجله ، مجاورا الله ، باذلا فى طاعته أقصى الطاقة ، راجيا أن يقبل توبته ويغفر له ماأسلف من ذنوب ، الى غير ذلك مما تغنّى به فى قصيدته التى أنشدها فى طريق رحلته هذه والتى قال فيها :

سيرى تماضر حيث شئت وحدّثى ... إنّى إلى بطحاء مكة سائرُ

حتى أنيخَ وبين أطمارى فَتى ... للكعبة البيتِ الحرام مجاور

متعوذ بالركن ، يدعو ربه ... يشكو جرائر بعدهن جرائِر[3]

وفيها يقول :

يامنْ يسافر فى البلاد منقّبا ... إنّى إلى البلد الحرام مسافر

إن هاجر الإنسان عن أوطانه ... فالله أولى منْ إليه يهاجِر[4]

ثم يقول :

فى طاعة الجبّار أبذل طاقتي ... فلعلّنى فيها لكسرىَ جابر

١- مفتاح السعادة ٢/١٠٠.

٢- خصائص العشرة الكرام البررة ، تقديم المحقق ص ١٣ . وفى مرآة الجنان ٣/٢٦٩ (وكان شروعه فى تأليف المفصل سنة ٥١٣ ، وفرغ منه فى غرة المحرم أظنه قال سنة ٥١٥هـ) . وفى كشف الظنون ٢/١٢١٧ أن الزخشرى أتم «الفائق فى غريب الحديث» فى شهر ربيع الآخر سنة ٥١٦هـ .

٣- الديوان ٣١٤ .

٤- الديوان ٣١٤ .

سـأروح بين وفـود مكـة وافـدا حتى إذا صدروا فما أنا صادر

بفنـاء بيت اللـه أضرب قبّتى حتى يَحُـلّ بى الضريحَ القابر

ألقِى العصا بين الحطيم وزمزم لايطُبّينى إخـوة وعشـائر

ضيفاً لمولًى لايُخِلّ بضيفه ويُـزِلّ[1] أقصى ماتمنى الزائر

حسبى جوارُ الله ، حسبى وحده عـن كل مفخـرة يعد الفاخر

ساقيم ثَمّ وثَمّ تدْفـن أعظمـى ولسوف يبعثنى هناك الحاشر[2]

وفى مكة التقى بالشريف عُلَىّ بن عيسى المعروف بابن وهّاس ، وكان عالما فاضلا جوادا ممدحا[3] ، فأحسن وفادته ، وأحاطه بكرمه ورعايته ، واعترف الزمخشرى بفضله فى مدائح كثيرة ، ومنها قوله فيه :

ومما أجلّ الصنـع فيه إناختى بمكـة مرضياً مَرادا ومَوْردا

ولولا ابنُ وهّـاس وسابغُ فضله رعيتُ هشيما واستقيت مصردا[4]

ويقضى الزمخشرى عامين فى مكة ثم يعاوده الحنين إلى وطنه وقومه ، فيترك مكة عائدا إلى خوارزم . وكان هذا جواره الأول الذى امتد عامين ، كما دل على ذلك ماقاله بعد عودته إلى خوارزم فى الشوق إلى مكة وإلى صديقه ابن وهاس:

ألا أبلغـا أمّ القـرى وقطينها تحيّة نفس ماتُغِبُّ حنينها

إلى أن قال :

متى ذكرتْ - والذكرُ يبتعث الأسى - بمكـة عاميها أطالت أنينها[5]

ويداعب الأمل فى المنصب والمال خيال الشاعر مرة ثانية، فيعود إلى الاتصال

١- يزل : يسدى ويولم ، والزلة : الوليمة

٢- ديوان الزمخشرى ٣١٥ .

٣- شرح القاموس (زمخشر)

٤- الديوان ٢١ .

٥- الديوان ٢٣ .

بالملوك والوزراء وإن كان لم يكثر من ذلك ، فلم يتجاوز مدحه لهم فى هذه الفترة بضع قصائد .

فقد ارتحل إلى خراسان حيث مجير الدولة الأردستانى فمدحه بقصيدة ، ثم قدم إليه كتابه« الأنموذج[1] »، راجيا أن يطلع عليه عله يرضى عنه ويقتنع بكفاءته فيقلده منصبا فى دولته يقدح به زندا واريا من مناقبه، وفى ذلك يقول :

فليت رحالى ألقيتْ بفنائه ... فأرتعَ فى نعمائه غير نازحِ
ويقدحَ زندا واريا من مناقبى ... إذا صَلَدَتْ كلُّ الزّناد لقادح
وفى شرح أبيات الكتاب لبعض ما ... يرى فى صفاتى مجملا أىُّ شارح
وأنموذجا أنفذت منه يضمُّه ... رجائى أرى فيه وجوه المناجح
أراقب من عين الوزير اطلاعة ... عليه ، وحسبى منه لمحةُ لامح
فلو أنها كلت عن العيب ، وارتضت ... فما ضنّ دهرى بالكريم المسامح
وألقيت قِدْحى فى قِداح فوائز ... وأجريتُ طيرى فى طيور سوانح
وألبستُ من إنعامه حلّةً لها ... محاسنُ ردتّْ غيرها كالمقابح[2]

واتصل بالخوارزمشاه أتسز[3] كما اتصل بتاج الملوك وابنه شمس الملوك بدمشق ومدحهما.

ويخفق فى تحقيق أمله للمرة الثانية ، فلا يظفر بالمنصب الذى ينشده ، ويعاوده الحنين إلى مكة ، ويمضّه ألم شديد لفراقها ، ويجرى على لسانه شعر كثير يعبر فيه عما يحسه من ندم شديد على تركها ، وشوق حار إلى العودة إليها، ومن ذلك قوله :

أأبتاع بالفوز الشقاوة خاسرا ... وأستبدل الدنيا الدنيّة بالأخرى

١- الأنموذج فى النحو اقتضبه من المفصّل (كشف الظنون ١/١٨٥) وهذا مايؤكد أن هذا الاتصال كان بعد عودته من مكة لأنه فرغ من المفصل قبيل سفره إليها .

٢- الديوان ٢٠ .

٣- وقد حرر باسمه نسخة من كتابه «مقدمة الأدب» لخزانة كتبه، انظر مقدمة الأدب ١-٣ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٥/٢٢٩ .

إذا خطرت بالبال ذكرى إناختى ... على حرم الله استفزّتنى الذكرى

أكابد ليلا كالليالى وحسرةً ... ودمعا غزير المستقى غائرَ المجرى

وأدعو إلى السُّلوان قلبا جوابه ... لداعيه مُهْراقٌ من المقلة العبرى

وماعذرُ مطروح بمكة رحلُه ... على غير بؤس لايجوع ولايعرى

فسافر عنها يبتغى بدلا لها ... وربِّك لاعذرى وربِّك لاعذرى(١)

ويقول متمنيا أن يعود إليها فيشفع عامیه بأعوام يكمل بها سعادة نفسه :

بودِّىَ أن أغشى تِهامةَ مُقْلِقاً ... إلى الكعبة البيتِ الحرامِ وضينَها

لأشفع أعواما بعامىً مكْمِلا ... سعادة نفْسٍ نفَّس الله حَيْنَها(٢)

وعاد الزمخشرى إلى مكة ، وأقام فيها ثلاث سنوات ، هى مدة جواره الثانى ، فتم له بذلك خمسُ سنوات بمكة مجاورا البيت الحرام ، ويسجل شعره ذلك فيقول :

فجاورت ربّى وهْوَ خيرُ مجاور ... لدى بيته البيت المحرّمِ عاكفا

أقمتُ بإذنِ الله خَمْساً كواملا ... وصادفتُ سبعا بالمعرَّفِ واقفا(٣)

ويتفق هذا مع ماذكر صاحب مفتاح السعادة من أنه «وقف بعرفات سبع مرات وحطَّ فى البلد الحرام خمس سنين» .(٤)

وأغلب الظن أن هذا الجوارَ الثانى كان بين سنتى ٥٢٦ هـ ، ٥٢٩ هـ ، ذلك لأنه فى الطريق إلى مكة مدح تاج الملوك وابنَه شمسَ الملوك بدمشق، وقد تُوُفِّىَ الأبُ وخلفه الابنُ سنة ٥٢٦هـ ، (٥) ولأنه فرغ من تأليف الكشاف بمكة سنة ٥٢٨ هـ وقد أتمه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهى سنتان

١- الديوان ٢٦ .
٢- الديوان ٢٣ .
٣- الديوان ١٩٠ .
٤- مفتاح السعادة ٢/٩٩ .
٥- مرآة الجنان ٣/٢١٥ سنة ٢٥٦ هـ .

وعدة أشهر .(١)

وفى مكة لقى الزمخشرى من حفاوة ابن وهاس وقومه ومناصرتهم له ما أشاد به كثيرا فى شعره ومنه :

بمكة آخيتُ الشريفَ وفتيةً ... تُواليه من آل النبى غَطارِفا

وكنت عليهم من أعزّ نفوسهم ... أعزّ وكلٌّ كان صِنْوا مُلاطفا

لكلّ مُوالٍ لى وليًّا مُناصحا ... لكلّ مُعادٍ لى عدوا مُكاشِفا

ثم يقول عن ابن وهاس :

على باب أجياد بنى لى منزلا ... كركن شمام بالصفا متواصفا

وأنفق فى إتمامه من تلاده ... ثقيلات وزن فى البلاد خفائفا(٢)

وكانت هذه الصلة الوطيدة بين ابن وهاس والزمخشرى خيرا على العلم والأدب ، أنطقت الزمخشرى بكثير من قصائد المدح الصادق ، ونشطته لتأليف كتابيه الكشاف والمحاجاة بالمسائل النحوية اللذين أهداهما إلى صديقه ابن وهاس(٣) ، كما جمع شعره فى «ديوان الأدب» استجابة لرغبته .(٤)

نهاية المطاف :

ويتقدم الزمن بالزمخشرى فتغمره موجة من الزهادة والقناعة فى كل شئ ، فى العلم والأدب والتدريس والتصنيف ، ويختار لنفسه «الطريقة الأويسية»(٥) فينقل كتبه إلى مشهد الإمام أبى حنيفة ويوقفها عليه ، ولم يبق معه إلا كتاب الله

١- انظر ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ١٩/١ مقدمة المحقق، وانظر مقدمة الكشاف للزمخشرى .

٢- الديوان ١٩١ .

٣- انظر مجلة المجمع العلمى العراقى المجلد ٢٣ ص ١٥٧ .

٤- انظر مقدمة «الديوان» للزمخشرى .

٥- الأويسية : نسبة إلى أويس القرنى ، كان من كبار الزهاد، يقال إنه قتل فى معركة صفين، وقبره بالرقة، وعن أخباره فى زهده وتدينه انظر الطبقات الكبرى ٣٩/١ - ٣٠ ودائرة المعارف للبستانى ٧٠١/٤ .

وقد وضح ذلك فى رده على استجازة الحافظ أبى طاهر السلفى إياه،حيثُ قال:

«وأما ماطلب عندى وخطب إلىّ من العلوم والدراسات ، والسماعات والروايات فبنات خلعت على تربيتهن الشباب ، ثم دفنتهن وحثوت عليهن التراب ، وذلك حين آثرت الطريقة الأويسية على بنيات الطرق ، وأخذت نفسى برفض الحجب والعوائق، ونقلت كتبى كلها إلى مشهد أبى حنيفة رحمه الله ، فوقفتها ، وأصفرت منها يدى إلا دفترا واحدا قد تركته تميمة فى عضدى وهو كتاب الله المبين ، والحبل المتين والصراط المستقيم ، لأهب لما قعدت بصدده كلًى ، وألقى عليه وحده كلَىّ ، ولايشغلنى عنه بعض مايجعل الرأس مشتركا ، ويرد القلب مقتسما ، ولذتُ بحرم الله المعظم ، وبيته المحرم ، وطلقت ما وزرنى بتّاً ، وكففت ذيلى عنه كفْتا، مابى هم إلا خُوَيّصتى ، ومايلهينى إلا النظر فى قصتى، أنتظر داعى الله صباح مساء»[1] ،

ومن شعره الذى قاله فى ذلك :

ووفّقنى حتى وقفت نفائسى ... وأعلاق أسفارى فأبرحت واقفا

على مشهد النعمانِ نُوِّرَ قبْرُه ... كما نوّر الإسلامَ يالك سالفا[2]

ويعاوده الحنين إلى وطنه ، فيرجع إليه ، كبير السن ، واهن القوى، ينتظر داعى الله الذى لم يلبث أن وافاه ، وكانت وفاته رحمه الله بقصبة خوارزم سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة . «الرابع عشر من يونيو سنة أربع وأربعين ومائة وألف من الميلاد»[3]

١- ازهار الرياض ٣/ ٢٨٤-٢٨٥. ٢- الديوان ١٩٣ .

٣- انظر : معجم الأدباء ١٢٩/١٩ ونزهة الأدباء ٤٧٢ ، والأنساب ورقة ٢٧٧ وإنباه الرواة ٢٦٧/٣ ولسان الميزان ٤/٦ ودائرة المعارف للبستانى ٢٤٦/٩ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٢١٥/٥ .

الفصل الثالث

فى حقل العلم وروضة الأدب

عاش الزمخشرى حياة علمية أدبية خصبة ، يدرس العلم والأدب ، ويعلمهما ، ويصنف ويؤلف فيهما ، لايشغله عن ذلك منصب ولازوجة ولا ولد .

أساتذته :

والمراجع تذكر لنا العديد من أئمة العلم والأدب الذين تتلمذ عليهم الزمخشرى كل فى فنه الذى نبغ فيه .(١)

فقد أخذ الأدب عن أبى على الحسن بن المظفر النيسابورى(٢) ، وأبى مضر الأصفهانى ، ودرس الفقه على الشيخ السديد الخياطى ، وسمع من أبى سعد الشقانى ، وشيخ الإسلام أبى منصور الحارثى وجماعة .(٣)

والجدير بالذكر أن الزمخشرى لم يتوقف عن طلب العلم طيلة حياته ، فلم ير غضاضة فى أن يجلس إلى أبى بكر عبد الله بن طلحة اليابرى(٤) قارئا عليه كتاب سيبويه ، وكان ذلك بمكة ،(٥) فإذا علمنا أن الزمخشرى ذهب إلى مكة فى المرة الأولى سنة ٥١٦هـ وأقام فيها عامين تبين لنا أن الزمخشرى حين جلس إلى هذا العالم كان قد شارف الخمسين سنة، إن لم يكن بلغها أو تجاوزها، وكان حينئذ عالما ملء السمع والبصر لاسيما فى النحو الذى كان قد ألف فيه كتابه «المفصّل»

١- انظر الزمخشرى د. أحمد الحوفى ٤٨-٥١ ، ففيه فصل خاص بأساتذته .

٢- كاتب شاعر مؤلف، كان فى عصره مؤدب أهل خوارزم ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم، وهو شيخ الزمخشرى قبل أبى مضر، وله مؤلفات منها: تهذيب ديوان الأدب، وتهذيب إصلاح المنطق، وديوان شعر، وديوان رسائل، انظر معجم الأدباء ٩/ ١٩٠ .

٣- انظر معجم الأدباء ١٢٧/١٩ ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٩٧/٢ ، وبغية الوعاة ٣٨٨/٣ ، والطبقات السنية فى تراجم الحنفية ١٢٥/٤ .

٤- نحوى أصولى فقيه توفى سنة ٥١٨ هـ انظر: بغية الوعاة ٢٨٤.

٥- أزهار الرياض ٧٦/٣ ، ٧٧ .

قبل هذا الوقت .[1]

بل إن صاحب إنباه الرواة يقول عنه: «قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ورأيته عند شيخنا أبى منصور الجواليقى[2] رحمه الله مرتين ، قارئا عليه بعض كتب اللغة من فواتحها مستجيزا لها ».[3]

ولعل أستاذه أبا مضر محمود بن جرير الضبى الأصفهانى المتوفى سنة ٧٠٥ هـ[4] كان أكثر أساتذته تأثيرا فيه ، فقد أتى هذا العالم إلى خوارزم وكان له من العلم والخلق ماجعله يؤثر فى أهل خوارزم ومن بينهم الزمخشرى تأثيرا بالغا ، وياقوت يحدثنا عنه وعن أثره فى أهل خوارزم فيقول فى الترجمة له : «كان يلقب فريد العصر ، وكان وحيد دهره وأوانه فى علم اللغة والنحو والطب ، يضرب به المثل فى أنواع الفضائل ، وأقام بخوارزم مدة ، وانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علما كثيرا ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر فى اللغة والنحو منهم الزمخشرى ، وهو الذى أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتمذهبوا بمذهبه ، منهم أبو القاسم الزمخشرى.[5]

وشعر الزمخشرى فى أستاذه هذا مدحا ورثاء يعكس هذه الصلة الوثيقة التى ربطت بين التلميذ وأستاذه ، فهو لايذكر له علمه وأدبه فقط، بل يعترف له بأفضاله التى غمره بها ، فقد رعاه بماله وجاهه ، ووقف بجانبه يشد من عزمه ويدفع عنه غوائل الأيام ومحن الزمان، ومن ذلك ماقاله فى شكواه إلى نظام الملك:

١- إنباه الرواة ٣/٢٦٩ .

٢- أبو منصور الجواليقى كان إماما فى فنون الأدب ، من مفاخر بغداد ، درس الأدب فى المدرسة النظامية ، توفى ٥٣٩ هـ ، معجم الأدباء ١٩/٢٠٥، وبغية الوعاة ٤٠١ .

٣- انظر : إنباه الرواة على أنباه النحاة ٣/٢٦٩ .

٤-معجم الأدباء ١٩/١٢٣ - ١٢٤ .

٥- المرجع السابق .

إليك نظامَ الملك شكواى فاستمع ... إلى بثّ مجذوذِ المعايش ضَنْكِها

طريحِ خُطوبٍ كلَّ يوم تنوبه ... ببائقةٍ تُنْحى عليه بِبَرْكِها

ولو لم يل الضبّيُّ عنّى عِراكها ... لغالت يد البلوى أديمى بِعَرْكِها(١)

فلا عجب أن اشتد حزنه عليه حين مات ، فرثاه بقصيدة طويلة منها :

فقلت لطبعى هات كلَّ ذخيرة ... فمن أجله مازلتُ أدّخِرُ الذُّخرا

وأَبْرِزْ كريماتِ القوافى وغُرَّها ... فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا(٢)

مؤلفاته :

يقول الزمخشرى مفتخرا بما ألف فى العلم والأدب :

ونشّر من أفْواف كُتْبٍ وشيتُها ... بأيدى النُّهَى فى الخافِقَين زخارفا

تَطِن بها الآفاقُ حتى كأنمّا ... أهبّ بها اللهُ الرياحَ العواصفا

غرستُ بها دوحا من العلم مالثا ... يدَىْ كلّ جان وهْو دان مقاطفا

كأن ثُبات الآخذين علومها ... جناةُ نخيل يقطفون المخارفا

تلقّيك حِلما أو تفيدُك حكمةً ... إذا طالعت عيناك تلك الصحائفا

كأنك إن ألقيت ذِهْنا مُجالسٌ ... أكاثمَ عقّادى الحُبَى وأحانفا(٣)

هذه الكتب التى يشيد بها الزمخشرى فى أبياته هى مؤلفاته التى تركها لنا فى مختلف فروع العلم والأدب ، عاش لها كل حياته ، وأعطاها كل حبه حتى شغل بها عن الزوج والولد، واتخذ منها بنين وبنات اعتز بما بلغته من استواء الشباب واستيفاء العقل ، وأشاد بنفاستها وفضلها ، وتاه بها على ذوى الأبناء من الصلب ، وكان لايفتأ يناجيها بمثل قوله :

١- ديوان الزمخشرى ٥٣ .

٢- الديوان ١٠٨ .

٣- الديوان ١٨٨ - ١٨٩ .

أيا بنين استَووْا شبابا ... واستوفَوا العقلَ والكِياسةْ
قرّوا بعينيك حين قرُّوا ... في ذروة العز والرياسةْ
بَنيّ فاعلم بناتُ فِكْرِي ... حَصانهم أُمّة الدراسةْ
أبناءُ صدق لهم نُفوسٌ ... وُصِفْنَ بالفَضْل والنفاسة(١)

وقد ذكرت المراجع له نحو خمسين مؤلفا ، وكثر فيها الإشادة بها ، والتنويه بتعدد ميادينها ، وكثرة فنونها(٢) ، ومن ذلك ماقاله صاحب مرآة الجنان من أن الزمخشرى «له التصانيف البديعة الكثيرة الممدوحة الشهيرة ، عد بعضهم منها نحو ثلاثين مصنفا فى التفسير والحديث والرواة وعلم الفرائض والنحو والفقه واللغة والأمثال والأصول والعروض والشعر»(٣)، ولست بصدد تتبع مانسب للزمخشرى من مؤلفات طبع بعضها ، وبعضها مازال مخطوطا ، وبعضها لانعرف عنه إلا اسمه ، فكثرة المراجع التى فصلت الحديث عن هذه المؤلفات تجعل من هذا الصنيع هنا تطويلا لامبرر له ، وحسبى هنا أن أعرف بأهم آثاره العلمية والأدبية ، وأذكر منها مايشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه فى ميدانى العلم والأدب بفروعهما المختلفة .

أ- آثاره العلمية:

كثيرة متنوعة فى العديد من فروع العلم منها :

فى التفسير «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» وهو موسوعة فى التفسير حافلة بموضوعات كثيرة فى الاعتزال واللغة

١- الديوان ٢٦٤ .

٢- عن مؤلفاته انظر : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (انظر فهرسته) ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٩٨/٢ والطبقات السنية ١٣٢/٤ ، ومعجم الأدباء ١٣٣/١٩ - ١٣٥ وتاريخ الأدب العربى لكارل بركلمان ٢١٦/٥ - ٢٣٩ وتاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ والزمخشرى للدكتور أحمد الحوفى ٥٦-٤٣ فى فصل خاص بها ذكر له فيه سبعة وأربعين مؤلفا .

٣- مرآه الجنان ٢٦٩/٣ .

والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات وما يتصل بها من تعليل وتمحيص .[1]

ومن ذلك أنه يستهل تفسيره لسورة «القيامة» بمسألة نحوية طريفة وهى إدخال «لا النافية» على فعل القسم فى قوله تعالى : «لا أقسم بيوم القيامة» ، ويفصل القول فيها فيقول : «إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم ، قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامرى لايدعى القوم أنى أفر

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلابك ما أبالى

وفائدتها توكيد القسم ، وقالوا : إنها صلة مثلها فى «لئلا يعلم أهل الكتاب» وفى قوله «فى بئر لاحوْر سرى وماشعر» واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد فى وسط الكلام لافى أوله ، وأجابوا بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته ، والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك أنه لايقسم بالشئ إلا إعظاما له بذلك وعليه قوله تعالى : «فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» فكأنه بادخال حرف النفى يقول : إن إعظامى له بإقسامى عليه كلا إعظام، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك ، وقيل إن «لا» نفى لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا، أى ليس الأمر على ماذكرتم ، ثم قيل: أقسم بيوم القيامة ، فإن قلت : قوله تعالى : «فلا وربك لايؤمنون» والأبيات التى أنشدتها المقسم عليه فيها منفى فهلا زعمت أن «لا» التى قبل القسم زيدت موطئة للنفى بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفيا لقولك : لا أقسم بيوم القيامة لاتتركون سدى؟ قلت : لو قصر الأمر على النفى دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنه لم يقصر ألا ترى كيف لقى لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الانسان ، وكذلك

١- الزمخشرى ٢٤٣ .

فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم، وقرئ لأقسم، على أن اللام للابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأنا أقسم ، قالوا : ويعضده أنه فى الإمام بغير ألف[1] » .

وهكذا لايترك هذه المسألة النحوية اللغوية الدقيقة حتى يوفيها حقها بما ينم عن عمق ثقافته وغزارتها ، ويشهد بقيمة كتابه التى لم تتوقف عند التفسير وإنما ضمت مباحث فى علوم عديدة تفيد كل من يتعرض لها بالدراسة . ولولا خشية الإطالة لذكرت أمثلة عديدة لذلك [2] .

فلا غرو أن كثرت إشادة الزمخشرى بكشافه مفتخرا به فى شعره ، ومما قاله فيه :

وناهيك بالكشّافِ كنزا نضاره ... يعلّم تمييز الجياد الصيارفا

وتخفِقُ أوراق المصاحِف هِزةً ... لزهْر مَعان يَزْدهين المصاحفا

فما فى بلاد الشرق والغرب ناقِدٌ ... يُقَلِّبُهَا دهرا فيُخْرِجُ زائفا

وليتهمُ بالغوص بعد إطالة ... لفكرهمُ يدرون تلك اللطائفا

أَبَي صاحبُ الكشاف إلا إصابةً ... لما ارتد عنه صاحبُ النبل صائفا[3]

وقال أيضا :

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمرى مثل كشافى

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافى[4]

١- الكشاف ١٦٣/٤ .

٢- انظر «الزمخشرى» ١٠٨ - ٢٤٤ فقد قدم الأستاذ الدكتور أحمد الحوفى فيه دراسة دقيقة مفصلة شاملة عن الكشاف وأهم مباحثه ، وهى دراسة تبين قيمة هذا الكتاب العظيم ، وغزارة علم صاحبه وتنوع ثقافته رحمه الله .

٣- الديوان ١٨٩ .

٤- معجم الأدباء ١٢٩/١٩ وملحق الديوان .

وقد ترك الكتاب أثرا كبيرا فى الأوساط العلمية ، وعنى الأئمة به بين شارح ومحسن ومادح وناقد ومختصر وملخص ، وطبع مرارا فى الهند ومصر ، ومع بعض الطبعات جزء فى تفسير شواهده .(١)

وفى الحديث:

ألف كتابه «الفائق فى غريب الحديث» وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات بتحقيق الأستاذين على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

قال عنه ابن الأثير «جاء الزمخشرى فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ ، وسماه الفائق ، ولقد صادف هذا الاسم مسمى ، وكشف عن غريب الحديث كل معنى ، ورتبه على وضع اختاره مقضى على حروف المعجم»(٢)

وفى علوم الدين :

أ- المنهاج فى أصول الدين

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة برلين برقم ٥ ، ٦ .(٣)

ب- رسالة فى كلمة الشهادة.

فى المجلد الخامس عشر من مجلة المجمع العلمى العراقى لسنة ١٩٦٧ م .

وفى الفقه:

أ- الرائض فى الفرائض(٤) .

ب- رؤوس المسائل فى الفقه(٥) . وتوجد منه نسخة فى مكتبة جسر بيتى برقم ٣٦٠٠(٦) .

١- تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٩ ، وانظر فيما ألف حوله كشف الظنون مادة كشف، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/٢١٧-٢٢٤ .

٢- النهاية فى غريب الحديث مقدمة الكتاب .

٣- ربيع الأبرار . مقدمة المحقق ١٤ .

٤- بغية الوعاة ٣٨٨ .

٥- الزمخشرى ٥٨ .

٦- ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ١٤ .

جـ- معجم الحدود[1] .

وفى النحو:

أ- المفصّل

ألفه بين سنتى ٥١٣ ، ٥١٥ هـ، يقول عنه بروكلمان: إنه صار عمدة فى النحو بأسلوبه المحكم الواضح[2]، وقد جعله على أربعة أقسام فى الأسماء والأفعال والحروف والمشترك من أحوالها ، وبلغ من تعظيم قدره أن شرط الملك المعظم عيسى الأيوبى لمن يحفظه مائة دينار وخلعة[3] ، وقد ترجم إلى الألمانية وطبع طبعات كثيرة منها طبعته مع شرح ابن يعيش فى عشرة أجزاء .

ب- الأنموذج

وهو مختصر عن المفصّل (مطبوع)

جـ- شرح أبيات كتاب سيبويه ، وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة أحمد الثالث فى إستانبول وهى فى إحدى عشرة ورقة ومائة ورقة .[4]

وقد ذكره هو والأنموذج فى شعره متقدما بهما إلى مجير الدولة ، وذلك حيث يقول :

وفى شرح أبيات الكتاب لبعض ما ... يرى فى صفاتى مجملا أىُّ شارح

وأنموذجا أنفذت منه يضمُّه ... رجائى أرى فيه وجوه المناجح[5]

د- المحاجاة ومتمم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والأغلوطات ، أو «المحاجاة بالمسائل النحوية» على اختلاف بين المراجع فى اسمه ، ألفه الزمخشرى بعد

١- الزمخشرى ٥٨ .

٢- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/ ٢٢٤ .

٣- تاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٤٩ .

٤- ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ٢٤ .

٥- الديوان ٦١ .

تأليفه للكشاف وأهداه إلى أمير مكة علىّ بن وهّاس وقد طبع ببغداد سنة ١٩٧٣ (م)[١]

وهو ألغاز ومسائل نحوية يقصد بها المعاياة والأفاكيه[٢] .

وفى اللغة:

أ- أساس البلاغة

وهو معجم فى اللغة العربية لامثيل له فى طريقته [٣] ، رتبه على حسب الحرف الأول ومايليه من حروف الهجاء، وكان رائدا فى هذا الترتيب الدقيق السهل، وهو يمتاز عن غيره بذكر الاستعسالات المجازية للكلمة فى مواضعها من الجمل، إلى جانب معناها الحقيقى، ولذا زخر بأبيات الشعر، والعبارات الأدبية لتوضيح معانى الكلمات فى استعمالاتها المختلفة ، وقد طبع أكثر من مرة .

ب- الجبال والأمكنة والمياه

وهو كالمعجم الجغرافى يذكر فيه أسماء البقاع المشهورة فى أشعار العرب (مطبوع)[٤]

جـ- مقدمة الأدب

وهو معجم عربى فارسى ، وأكمل فيما بعد بجزء تركى ألفه لأبى المظفر أتسز بن خوارزمشاه[٥] ، طبع أكثر من مرة، كما ترجم إلى التركية[٦] .

وفى البلاغة

١- الدر الدائر المنتخب، من كتابات واستعارات وتشبيهات العرب .

١- ربيع الأبرار مقدمة المحقق ٢٤ .
٢- الزمخشرى ٦١ .
٣- تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٩ .
٤- تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٩ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/٢٣١ .
٥- المرجع السابق ٥/٢٢٩ - ٢٣٠ .
٦- ربيع الأبرار مقدمة المحقق ٢٢ .

وقد نشر فى المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمى العراقى .

٢- رسالة فى المجاز والاستعارة .(١)

وفى العروض:

القسطاس فى العروض، وقد طبع فى مطبعة النعمان فى النجف سنة ١٩٧٠هـ (٢)

وفى المنطق:

أ- كتاب عقل الكل

ب- كتاب الأجناس(٣)

هذه أهم آثار الزمخشرى فى فروع العلم المختلفة، وحق له أن يفتخر بعلمه الواسع وثقافته المتنوعة فى شعره معددا هذه الميادين العلمية التى نبغ فى كل منها على تشعبها، ومن ذلك قوله :

ترانى فى علم المنزّل عالما ... وما أنا فى علم الأحاديثِ راسفا

فَلِلسنّةِ البيضاء فى مناجِحٌ ... ويبغى كتابُ الله منى المعارفا

وما أنا من علم الديانات عاطلا ... بأحسن حلْى لم يزل لى شائفا

فكم قد وحت يمناى منه دفاترا ... وكم قد وعت أذناى منه وظائفا

ومالغات العرب مثلى مقوّمٌ ... أَبىَ كلُّ ندْب مُتْقِن أن يخالفا

وليس لتثقيف الرماح كسمهر ... وليس كعمرو فى الرماية ثاقفا

أقيد عندى سرّها وصميمَها ... وأنفى أُشاباتٍ سُدَى ولفائفا

١- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/٢٣٨ .

٢- ربيع الأبرار مقدمة المحقق ٢٣ .

٣- الزمخشرى ٦٣ وعقب عليهما المؤلف الدكتور أحمد الحوفى بقوله «وربما كان الكتابان فى المنطق» .

وبى يستعيذُ النحوُ من أن يسوسَه ... نُهى لم يجدها الذائقون حَصائِفا

فقل : أين خلّى سيبويه كتابه ؟ ... يقل حجرُ جار الله مأوى حالِفا

وعلما المعانى والبيان كلاهما ... أزف إلى الخُطّاب منه وصائفا

وعلمُ القوافى والأعاريضِ شاهدٌ ... بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا(١)

والجدير بالذكر أنه ألف معظم كتبه فى الشطر الثانى من حياته، بعد أن زهد وتنسك وأصبح يقصد وجه الله وخدمة الدين بكل أعماله .

فلا عجب أن وضحت فيها العاطفة الدينية، لانستثنى من ذلك مؤلفاتِه فى النحو واللغة، فقد ألف فيهما بدافع دينى لعلمه بحاجة دارس القرآن وإعجازه الى الإلمام بالعربية، كما وضح ذلك فى مقدمته لكتابه المفصل .

ب- آثاره الأدبية:

وإذا كان الزمخشرى قد عرف فى الأوساط العلمية عالما فاضلا فى التفسير ، وأستاذا متبحرا فى النحو ، وإماما فذا فى اللغة ، لِماله فى هذه التخصصات من آثار تشهد ببراعته وطول باعه فى كل منها على حدة ، فإن مكانته الأدبية لاتقل عن هذه المكانة العلمية .

وآثاره فى ميدان الأدب- بكثرتها وتنوعها وجودتها - تجعله من رجال الأدب البارزين فى تاريخ أدبنا العربى .

عشق الزمخشرى الأدب منذ حداثة سنه، فأكب على كتبه يقرأ ويدرس، وتعى ذاكرته الكثير منه حتى وجدناه فى مقتبل حياته يؤلف كتابه «المستقصى فى أمثال العرب»(٢) ويحوى بين دفتيه واحدا وستين وأربعمائه وثلاثة آلاف مثل عربى ، مع شروحها وذكر مواردها، وما أحسب أن هذا العمل الضخم قد تهيأ له

١- الديوان ١٨٧ .

٢- معجم للأمثال العربية مرتب على حروف الهجاء حسب أوائل الأمثال ، فرغ من تأليفه فى شهر رمضان سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة (ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ٢٣) طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٨١ هـ من جزأين .

إلا بعد مطالعات واسعة واستيعاب واع لما أنتجته قرائح الأدباء قبله .

وكتابه «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» كتاب ضخم يقع فى أربعة مجلدات صنفه بعد كتابه الكشاف الذى فرغ منه بمكة المكرمة سنة ٥٢٨ هـ ، وقال عنه فى مقدمته : «هذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين فى الكشاف عن حقائق التنزيل، وترويح قلوبهم المتعبة فى إجالة الفكر فى استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنفيث عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه ، وأن تكون مطالعته ترفيها لمن مل ، والنظر فيه إحماضا لمن اختل .

فاخرجته لهم روضة مزهرة ، وحديقة مثمرة ، متبرجة بزخارفها ، مياسة برفارفها ، تمتع برايع زهرها وتلهى بيانع ثمرها ، وتقر العيون بآنق مرآها، وتفغم الأنوف بعبيق ريّاها ، وتلذ الأفواه بطيب جناها ، وتستنصت الآذان إلى خرير مائها الفياض ، وتطّبى النفوس إلى برد ظلها الفضفاض ، وتميل الأعطاف بغصونها الأماليد ، وطيورها المستملحة الأغاريد، نُزهة المستأنس ، ونُهزة المقتبس ، من خلا به استغنى عن كل جليس ، ومن أنس به سلا عن كل أنيس ، أين من طيب ندامه نديما مالك وعقيل ، وأين من در غزله كثير عزة وجميل ؟

إن أردت السمر فياله من سمير ، وإن طلبت الخبر سقطت على خبير ، وإن بغيت العظات المبكية ففيه مايشرق بالدمع أجفانك ، أو الملح المضحكة ففيه مايفر بضاحكه أسنانك» (١)

وقد رتب الزمخشرىّ الكتاب على اثنين وتسعين بابا(٢) ، يذكر فى كل باب ماقيل فيه ، ومايتصل به من أقوال الحكماء والأدباء ، فنجده مثلا يقول: «باب الجوابات المسكتة ورشاقات اللسان ومايجرى من الاستدراك والاعتراض والتبكيت والمماراة واللجاج والجدل» ثم يذكر كل مايتصل بذلك من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقوال الصحابة والتابعين والزهاد والنساك ،

١- ربيع الأبرار ٢٧ مقدمة المحقق .

٢- المصدر السابق ٢٧ .

وحكماء العرب وغيرهم ، ويذكر ماينا سبه من الشعر إن وجد شعر فى معناه.(١)

وهذه نماذج مما ذكره فى هذا الباب :

١- قال النبى صلى الله عليه وسلم :لايعدى شئ شيئا ، فقال أعرابى : يارسول الله إن النقبة تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما أجرب الأول؟(٢)

٢- على رضى الله عنه : قال له يهودى : مادفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال له: إنما اختلفنا عنه لافيه ، ولكنكم ماجفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .(٣)

٣- قال رجل لجعفر بن محمد : ما الدليل على الله ؟ ولاتذكر لى العالم والعرض والجوهر، فقال له : هل ركبت البحر ؟ قال: نعم. قال : هل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق ؟ قال : نعم ، قال : فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين ؟ قال نعم ، قال : فهل تتبعتْ نفسُك أنَّ ثَمَّ من ينجيك؟ قال: نعم ، قال : فإن ذلك هو الله : قال الله تعالى : «ضل من تدعون إلا إياه». «وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون» .(٤)

٤- قال أبو العتاهية لابن مناذر : كم تقول فى اليوم من الشعر ؟ قال الخمسة أو الثلاثة ، فقال أبو العتاهية : لكنى أقول المائة والمائتين ، فقال ابن مناذر : أجل إنك تقول :

ياعتب مالى ولك ياليتنى لم أرك

وأنا أقول :

١- المصدر السابق ٦٦٢ - ٧٢٥ .
٢- المصد السابق ٦٦٢ .
٣- المصدر السابق .
٤- المرجع السابق ٣٦٣ .

ستُظلم بغداد وتجلو لنا الدُجَى بمكة ماعشنا ثلاثةُ أقمر

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ

وماخلقت إلا لجودِ أكفُهم وأقدامُهم إلا لأعواد مِنبرِ

ولو أردت مثله لطال عليك الدهر .(١)

والكتاب بصورته هذه ينطق بما كان للزمخشرى من ثقافة عريضة ، ودراية واعية بآداب العرب وغيرهم من الأمم .

بل إن ثقافته الأدبية لتطالعنا حتى فى مؤلفاته العلمية ، نجدها ترفده فى إسماح ويسر بما تزدان به كتبه من أبيات شعرية أو أمثال سائرة ، وكتابه «أساس البلاغة» زاخر بهذه الروائع الأدبية .

ولم تقف جهود الزمخشرى الأدبية عندما تركه السابقون من أدباء العرب وغيرهم يقرؤه ويعى الكثير منه ، ويصنف فيه ، بل كان له إنتاجه الأدبى الخاص به فى ميدانى النثر والشعر .

أما فى النثر:

فإن المراجع تذكر له كثيرا من المؤلفات فيه ، وبين أيدينا من مؤلفاته النثرية المطبوعة .

أ- نوابغ الكلم أو الكلم النوابغ

وهى حكم قصار متوالية موجزة ، مسجوعة ، لايجمعها موضوع أو فكرة، طبعت أكثر من مرة كما ترجمت إلى اللاتينية والفرنسية(٢). ومن ذلك ماقام به صلاح الدين البستانى من تحقيقها وضبطها ووضعها فى ذيل كتاب «أمثال الشرق والغرب» ١٩٨ - ٢٢٤ وتضم ٣١١ كلمة .

ومما كتبه الزمخشرى فى مقدمتها : اللهم إن ما منحتنى من النعم السوابغ

١- المرجع السابق ٢٨٥ - ٦٨٦ .

٢- ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ٢٢ .

إلهام هذه الكلم النوابغ ،ناطقة بكل زاجرة وموعظة ، وحاثة على عبرة موقظة ، كأنى ألقن بها حكمة لقمان، وأصف بها مجلة آصف بن سليمان .(١)

وهذه نماذج منها :

١- آنث من النسوة من اتخذ النسوة أسوة .

٢- الأئمة الجِلّة الحنفية أزمّة الملة الحنيفية .

٣- الأب أعرف وأشرف والأم أرأم وأرأف .

٤- اترك مالا يبقيه عليك وارثه ، ويبقى عليك كوارثه .(٢)

ومنها كذلك:

٥٣- إن فوات الوُفاة أشد على الحر من الوفاة .

٥٤- اعلم بأن المستحيل ثلاثة : الغول والعنقاء والخِل الوفى .

٥٥- إن لم تملك فضل لسانك ملّكت الشيطانَ فضل عِنانك .

٥٦- إن واليت قرين السوء أعداك بدائه ، فكن من أعدائه تنج من إعدائه .(٣)

ب-المقاماتوشرحها:

وقد بين الزمخشرى سبب إنشائها وتاريخه والغرض منها فى خطبته التى قدمها بين يديها، ومما قاله فى ذلك : «هذه مقامات أنشأها الإمام فخر خوارزم أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، والذى ندبه لإنشائها أنه أرى فى بعض إغفاءات الفجر كأنما صوت به من يقول له : «يا أبا القاسم أجل مكتوب وأمل مكذوب، فهب من إغفاءاته تلك مشخوصا به - مما هاله من ذلك وروعه ، ونفر طائره وفزعه ، وضم إلى هذه الكلمات ماارتفعت به مقامه وآنسها بأخوات قلائل، ثم قطع لمراجعة الغفلة عن الحقائق ، وعادة الذهول عن الجد بالهزل ، فلما أصيب

١- أمثال الشرق والغرب ومعه نوابغ الكلم ١٩٨ . آصف : كاتب سليمان صلوات الله عليه ، دعا بالاسم الأعظم فرأى سليمان العرش مستقرا عنده. القاموس المحيط (آصف) .

٢- المصدر السابق ١٩٨ .

٣- المصدر السابق ٢٠٢ .

فى مستهل شهر الله الأصم ، الواقع فى سنة اثنتى عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التى سماها المنذرة، كانت سبب إنابته وفيئته وتغير حاله وهيئته، وأخذه على نفسه الميثاق لله إن من عليه بالصحة أن لايطأ بأخمصه عتبة السلطان، وأن يعتصم بحبل الله ويتمسك ، ويتبتل إلى ربه ويتنسك. وحين أتاح الله له الصحة التى لايطاق شكرها انتدب للرجوع إلى رئاسة عمله فى إنشاء المقامات، حتى تممها خمسين مقامة يعظ فيها نفسه ، وينهاها أن تركن إلى ديدنها الأول، ولم يأتل فيما يعود على مقتبسها بجليل النفع وعظيم الجدوى ، فى بابى العلم والتقوى ، من انتقاء ألفاظها ، وإحكام أسجاعها ، وتفويف نسجها ، وإبداع نظمها ، وإيداعها المعانى التى تزيد المستبصر فى دين الله استبصارا، والمعتبر من أولى الألباب اعتبارا .(١)

فهى كما ذكر تضم خمسين مقامة بدأها قبل مرضته الناهكة فى سنة ٥١٢هـ وأتمها بعد شفائه منها ، يعظ فيها نفسه، ويبدأ كل مقامة بقوله «ياأبا القاسم» وهى كنيته ، وجعل لكل مقامة اسما، مثل «مقامة الراشد» و «مقامة التقوى» و«مقامة الرضوان» و «مقامة الارعواء» و «مقامة العروض » و «مقامة القوافى» .

وقد يختم بعضها بأبيات من الشعر من إنشائه تتصل بموضوع المقامة ، كما قدم لها فى الحاشية شرحا وافيا، وهذا نموذج منها .

مقامة العمل

«يا أبا القاسم : لاتسمع لقولهم فضل مبين ، وأدب متين ، واسم فى المهارة بهما شهير، وصيت فى إتقانهما جهير ، وفتى طبآن من المناقص والرذائل ، ريان من المناقب والفضائل ، إن ذكر متن اللغة فحلس من أحلاسه ، أو قياسها فسائس أفراسه ، أو أبنيتها فليسمر السمار به وبدقة تصريفه ، لابسنمّار وغرابة ترصيفه، أو النحو فهو سيبويه وكتابه ، ينطق عنه تراجمه وأبوابه ، أو علم المعانى فمن مُساجله ومُسانيه ومزاوله ومعانيه ؟ ومن يغوص على معان

١- مقامات الزمخشرى ، خطبة المؤلف ٥-١٠ .

كمعانيه ؟ أو نقْد الكلام فالنُّقدَة إليه كأنهم النُّقَدْ ، وقد عاث فيه الذئب الأعقد ، أو العروض فابن بجْدتها ، وطلاّع أنجدتها ، أو القوافى فإبداعه فيها يلقّطك ثمرات الغرابْ، وإغرابه فيها يحثو التراب فى وجوه أهل الإغراب ، أو الشعر فزياده وحسانه ، وإحسانه كما دبج الروضَ نيسانْه ، أو النثر فلو رأى ابن لسان الحُمَّرة حمرةَ لسانه لجهش ومابهش، أو لو سمع قولة قائل من صُحبانه: سحبانُ بن وائل لاستبقل من الدهش، أو معرفة الكتابة والخط ، فقد لجّج وترك الناس على الشط ، أو حفْظُ مايحاضرَ به ، فصيّب يفيضْ ، وبحر لايغيضْ ، وليس بعريان كعود النبّع ، من ثمر علوم الشرع .

نعم يا أبا القاسم: وإن سمعتهم يقولون : ماأكثر فضلك، فقل : إن فضولى أكثر، وما أغزر أدبك، فقل : إن قلة أدبى أغزر ، فلعمر الله ليس بأديب ولا أريب كل مغرب وحافظ غريب . الأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وطر ، إلا أن يكون له عند الله فضل وخطر . ماغناء من قوي علمه وعمله قد فتر ؟ إن علما بلاعلم كقوس بلا وتر ، حاملها حيران مرتبك فى العماية ، لايهتدى وإن كان ابن تقْن إلى وجه الرماية ، متى نظر إلى الرماة موترين منْبضين ، مسدّدين غير مُحْبِضين. قُعودا من الوَحْش على المراصدْ ، يَشُقّون خصورها بالقواصدْ ، أقبل على مِقلاة الغمِّ يتقلى ، ويجمرة الغيظ يتصلّى ، لايزيد على تنفيز سهامه ، والعضِ على إبهامه ، فإذا اشتوى غيره انشوى، بنار من الحسرة نزاعة للشوى .

أُغد عاقدا بين علمك وعملك صهرا ، وسُقْ إلى العمل من اجتهادكُ مهْرا ، ولاتظلم منهما شيئا من إقبالك ، ولاتبخسهما حظا من إشْبالك ، ولاتَدَعْ أن تضرب أخماسا لأسداسْ ، حتى تلفّها ونفسَك فى بُردة أخماس ، واعلم أن العلم إنما يُتَعلَّم ، لأنه إلى سلَّم ، كما أن العمل إلى ماعند الله ذريعة ، ولولاها ماعلم علم ولا شرعت شريعة» .

أما شروحه فى الحاشية فهى مستفيضة تنم عن حذق كثير للغة ، وثقافة متشعبة المناحى فحين يشرح كلمة «سنمار» التى وردت فى المقامة يقول :

«سنمار هو الذى بنى الخورنق للنعمان فلما أتمه رقى به معه ليريه صنعته ،

تعجب من مهارته فى عمله ، وتنقيته فى بنائه فقال له : أيها الملك أعجب من هذا كله أنّى أعرف فى هذا البناء حجرا إن نزع زعزع كله ، فخاف أن يطلع بعض أعدائه على مكان الحجر، وقيل غار أن يبتنى لغيره مثله فرمى به من رأس الخورنق فهلك ، فضرب جزاء سنمار مثلا فى عقوبة المحسن، قال شرحبيل الكلبى :

جزانى - جزاه الله شر جزائه- جزاءَ سِنمار وماكان ذا ذنبِ
سوى رصّه البنيان سبعين حِجّة يعلُّ عليه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تمّ سحوقه وآض كمثل الطود ذى الباذخ الصعب
وظن سنمّارٌ به كلّ خيره وفاز لديه بالمودّة والقرب
فقال اقذفوا بالعلْج من رأس شاهق فذاك لعمرُ الله من أعظم الخَطْبِ

وقيل : السنمار فى كلام العرب الذى لاينام بالليل ، والسنمار : اللص ، وكأنه من السمر والنون مزيدة» (١)

جـ- أطواق الذهب فى المواعظ والخطب:

ويضم مائة مقالة فى الحكم والنصح والمواعظ، وهى مقالات صغيرة لاعنوان لها ، ألفها الزمخشرى في البيت الحرام ،يدل على ذلك قوله فى مقدمتها مبتهلا إلى الله سبحانه :

«أرغب إليك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول مايهبها مهب الجنوب والقبول ، وأن تحفظ فيها ما أوجبت للجار من حق الذّمام والذمار، لأنها وجدت فى حرمك المطهر وولدت فى حجر بيتك المستر» (٢)

وقيل: إن الزمخشرى حين ألفها كان يطوف ببيت الله ، فإذا فرغ من الطواف الف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشئ بعد الفراغ إلى أن بلغت مائة مقالة(٣)· وهذه

١- مقامات الزمخشرى ٩٨ - ١٠٣ .
٢- أطواق الذهب ١٠٩ .
٣- انظر قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب ٩ .

نماذج منها :

١-المقالة الاولى:

مايخفض المرءَ عدمه ويتمه ، إذا رفعه دينُه وعلمه، ولايرفعه ماله وأهله، إذا خفضه فجوره وجهله ، العلم هو الأب ، بل للثأي أرأب . والتقوى هى الأم ، بل هى إلى اللبان أضمّ . فأحرز نفسك فى حرزهما ، واشدد يديك بغرزهما ، يسقك الله نعمة صيّبة ، ويحيك حياة طيبة (١)

٢-المقالة الثامنة عشرة:

عزة النفس وبعد الهمة ، الموت الأحمر والخطوب المدلهمة . لكن من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب نقيع العز وزعافه.

ومن لم يصطل بحَر الهيجاء لم يصل إلى برد المغنم ، ومن لم يصبر على براثن أسْد اللقاء لم يصب أطرافا كالعنم، وتحت علم الملك المطاع ذكر السيوف والأنطاع .

ومن لم يُقْضَ عليه عسرٌ يقذه لم يُقيَض له يسر ينقذه .

وما الحكمة الالهية إلا هى ، وهى القاعدة التى أمر عليها العبد ونهى .

اليوم عزاء فى كلف وكرب ، وغدا جزاء بزلف وقرب (٢)

٣-المقالة الحادية والخمسون :

رب دعاء ودمعه ، من أجل رياء وسمعه ، فلايزدهينك كل داع دامع العين ، ولاتغتر إذا سمعت بسُرى القين(٣) ولاتثق فالدين خال عن ثقاته، وأين من يتقى الله حق تقاته، واعلم أن أكثر الأمور مموه ، ظاهره جميل وباطنه مشوه .

١- أطواق الذهب ٨ ٢- المصدر السابق ٢٤ .

٣- لاتغتر إذا سمعت بسرى القين : هذا من أمثالهم، وأصله أن الحداد يقيم عند قوم اياما ثم يقول: إنى راحل عنكم الليلة ، يريد بذلك استعجالهم لعمله، ثم يبقى فيقال : إذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبح .

فاستعذ بالله من شر ما أنت راء ، فإن الدنيا كل يوم إلى وراء .(١)

٤- المقالة السابعة والتسعون :

لاتخطب المرأة لحسنها ولكن لحصنها ، فإن اجتمع الحصن والجمال فذاك هو الكمال ، وأكمل من ذلك أن تعيش حصورا ، وإن عمرت عصورا(٢)

د- أعجب العجب فى شرح لامية العرب :

وهو شرح لقصيدة الشنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواهم لأميل

وتحت عنوانه كتبت هذه الأبيات لابن حفص :

ياحسنَه زركشا صارت جواهره بين اليواقيت لم تُسْبقْ إلى أرب

شق الإله له من اسمه صفةً بل نسبة ظهرت فى الروم والعرب

لاتعجبوا لابن كشّاف إذا برزت منه الغرائب فى لاميّة العرب

بل كونه أعجمى الأصل منطبعا يعلّم اللغةَ الفصْحاءَ للعرب

وقدم الزمخشرى لها شرحا مستفيضا استغرق أكثر من سبعين صفحة ، وان كانت التخريجات النحوية والصرفية تسيطر عليه ، ومع هذا فهو يتوسل بها إلى توضيح المعانى وتحديد المقصود بها . وهذا نموذج لشرحه فيها :

أقدم منه ماقاله فى هذا البيت من اللامية :

وخَرْقٍ كظهر التُرْس قَفْرٍ قطعتُه بعاملتين ظهره ليس يعمل

«الخرق : الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح ، وجمعها خروق ، قال الهذلى : وإنهما لجّوابا خروق .

وكظهر الترس : يريد أنها مستوية .

١- المصدر السابق ٦٥ .

٢- المصدر السابق ١٠٩ .

وقفر : ليس بها أحد ، والعاملتان : رجلاه .

وظهره : إشارة إلى الخرق أيضا .

وخرق مجرور برب ، وكظهر الترس صفة لخرق ، وقفر قطعته صفتان لخرق أيضا، والواو واو رب. وتتعلق بمحذوف ، أى قصدت خرقا من الأرض ، ويجوز أن يكون «قطعته» هو العامل فى رب ، فلايكون صفة الباء فى «بعاملتين» تتعلق بقطعت، وظهره مبتدأ ، وليس وماعملتْ فيه خبره ، واسم ليس مستتر فيها ، ويعمل خبرها ، والمبتدأ وخبره صفة لخرق ، أي غير معمل فيها الركاب »(١)

هـ-خصائص العشرة الكرام البررة:

ويبحث فى خصائص العشرة المبشرين بالجنة ، وقد طبع بتحقيق الدكتورة بهيجة الحسنى.

وإلى جانب هذه المؤلفات الأدبية المطبوعة للزمخشرى تذكر المراجع له كتبا أخرى فى النثر الأدبى منها : شافى العى من كلام الشافعى ، وشقائق النعمان فى حقائق النعمان ، وديوان الرسائل ، وديوان خطب ، وديوان التمثيل ، وتسلية الضرير ، ورسالة المسامة والأمالى فى كل فن(٢).

ومن نثره الأدبى كذلك ماصدر به كتبه على اختلافها من مقدمات أو خطب(٣) وهى على قدر كبير من البلاغة .

ومنه ماأثر عنه من رسائل إلى بعض العلماء مثل رسالتيه إلى الحافظ السلفى ردا على استجازته إياه ، وقد حققتهما الدكتورة بهيجة الحسنى ونشرتهما مع رسالة الحافظ السلفى(٤) بالمجلد الثالث والعشرين من مجلة

١- أعجب العجب فى شرح لامية العرب ٦٩ - ٧٠ .

٢- معجم الأدباء ١٣٣/١٩ - ١٣٥ ووفيات الأعيان ١٠٧/٢-١٠ ، وكشف الظنون ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٥٨/٢ والزمخشرى ٥٦ - ٦٣ .

٣- انظر خطبة الديوان ١-٣ .

٤- هو الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى أحد الحفاظ المكثرين، رحل فى طلب العلم ، ولقى أعيان المشايخ ، وكان شافعى المذهب، ورد بغداد واشتغل بها على الكيا أبى الحسن =

المجمع العلمى العراقى، كما ذكر ياقوت جزءا من إحدى رسالتيه قائلا فى ترجمته: ومن إنشائه (أى الزمخشرى) ماكتب به إلى حافظ الإسكندرية أبى طاهر السلفى جوابا عن كتاب كتبه إليه يستجيزه :

«مامثلى مع أعلام العلماء ، إلا كمثل السها مع مصابيح السماء ، والجهام الصفر والرهام، مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام . والسُّكَيت المخلّف عن خيل السباق ، والبغاث مع الطير العتاق، وما التقليب بالعلامة إلا شبه الرقم والعلامة ، والعلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثانى الرواية ، وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلى فيها أقلص من ظل حصاة.

أما الرواية فحديثة الميلاد قريبة الإسناد ، لم يستند إلى علماء نحارير وأعلام مشاهير . وأما الدراسة فثَمْد لايبلغ أفواها ، وبَرْض مايبل شفاها. إلى إن قال : ولايغرنكم قول فلان فى. وذكَر جماعةً من العلماء والشعراء مدحوه وأثنوا عليه ، ثم قال : فإن ذلك اغترار بالظاهر المموّه ، وجهل بالباطن المشوّه ، ولعل الذى غرهم منى مارأوا من حسن النصح للمسلمين وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع وإفادة المبار والصنائع ، وعزة النفس والربء بها عن السفاسف ، والإقبال على خُوَيصتى ، والإعراض عما لايعنينى ، فجللت فى عيونهم ، وغلطوا فىّ ونسبونى الى مالست منه فى قبيل ولادبير...» إلخ .

والكتاب طويل اقتصرت منه على ما أوردت(١)

= علي الهراسى فى الفقه، وعلى الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى ، وروى عن أبى محمد جعفر بن محمد بن جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأماثل ، وجاب البلاد وطاف الآفاق ، ودخل ثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وأقام به وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن فى آخر عصره مثله ، وبنى له العادل أبو الحسن على وزير الظافر العبيدى صاحب مصر سنة ست وأربعين وخمسمائة مدرسة بالثغر المذكور وفوضها إليه وهى معروفة به إلى الآن . انظر وفيات الأعيان ١/٣٧-٣٨ .

١- معجم الأدباء ١٩/١٣٢ ، ١٣٣ .

تعليق على النثر الأدبى للزمخشرى:

من هذا العرض لبعض مادبجته يراعة الزمخشرى فى فن النثر الأدبى يمكن أن نسجل هذه الملاحظات :

١- أن الزمخشرى قد اهتم بالنثر الأدبى وخاض فى مختلف فنونه التى عرفها عصره، فوجدنا له مايتصل بفنون الترجمة والأمثال والحكم والخطب والمقامات والمقالات والرسائل .

٢- أن موضوعاته فى نثره الأدبى تدور فى معظمها حول النصح والوعظ والحكمة والنقد السياسى والاجتماعى .

٣- أن الوجدان الدينى يبدو واضحا فى معظم ماكتب، فالزمخشرى يطالعنا فيها عالما صالحا غيورا على دينه ناصحا للمسلمين ولنفسه .

٤- أن لغته فيه جزلة يكثر فيها الغريب والاقتباس من القرآن والحديث والشعر والأمثال وحكم السابقين .

٥- أما أسلوبه فيها فهو أسلوب الصنعة اللفظية، يحرص فيها على ألوان البديع، لاسيما السجع والجناس والطباق والازدواج ، ومع مايبدو من تكلف فى بعضها فإن القارىء لايسعه إلا أن يسجل للزمخشرى قدرته البارعة على تحقيق هذه الألوان والإكثار منها فى سهولة ويسر، تجعلها تبدو فى معظم الأحيان طبيعية لاتكلف فيها ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ضخامة الثروة اللغوية التى يمتلكها الزمخشرى، وإلى إحاطته بأسرار اللغة وطرق تصريفها وقواعد اشتقاقها، كما يرجع إلى سعة ثقافته.

وشىء آخر له أهمية فى هذا المقام هو أن الزمخشرى وإن كان يهتم بالبديع ويقصد إليه ، ويرى فيه زينة لأسلوبه ، ودليلا على مهارته، فهو يستعمله بوعى لمواطن حسنه وقبحه ، يعرف كيف يستعمله ، ومتى، ولابأس فى أن أذكر هذه السطور التى جاءت فى مقدمة مقاماته، يخاطب بها من سيقدم على قراءتها لنقف

منها على اهتمامه بالبديع ، ونقف على شئ من مذهبه فيه . يقول :(١).....
«وتكليفك أن لاتمر على شئ من تلك الأسجاع وغيرها من أبواب الصنعة إلا متأملا وجه تمكنه (يقصد نفسه) ، وثبات قدمه ، والاستعداد له قبل مورده ، لتعلم أن ماسماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع لايملح ولايبرع حتى يوازى مصنوعه مطبوعه ، وإلا فما قلق فى أماكنه ، ونبا عن مواقعه. فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء ، وأن تنبه على من يدرسه على مواقع النكت فيها واللطائف ، ومارعى فى مناظمها من رائع الترتيب ، وتفهيمك أن كلمات السجع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ، ويزاوج بينها ، ومايتم ذلك إلا بالوقف ، وإلا ذهبت أيادى سبا» .

ولم يكن الزمخشرى بدعا فى الاهتمام بالبديع ، فقد أصبح البديع مذهب الكتابة فى هذا العصر ، والذوق العام لأهله ، يحرص عليه كل أديب ، ولم يسلم من الشغف به والوقوع فى شباكه كاتب، ولكن يبقى للزمخشرى أن وراء أسلوبه البديعى ثروة فكرية ولغوية ، وكنوزا علمية وأدبية وتحفا فنية تثرى وتمتع كل من يقرؤها .

وأما فى الشعر :

فقد ترك الزمخشرى ديوان شعر سماه «ديوان الأدب» حوى مايزيد على خمسة آلاف بيت ، كما نسبت إليه قليل من القصائد وبعض المقطعات التى لم ترد فى ديوانه .

وقد قمت بتحقيق هذا الديوان ، وذيلته بملحق جمعت فيه ماعثرت عليه ومانسب إلى الزمخشرى من شعر لم يرد فى ديوانه .

وبذلك نرى أن الزمخشرى كما كان العالم النحرير الذى برز فى العديد من فروع العلم، كان الأديب النابه الذى نبغ فى كثير من فنون الأدب ، وأنه كما كان صادقا حين افتخر بعلمه حريا بهذا الفخر كان جديرا بأن يفتخر بأدبه شعرا

---

(١) مقامات الزمخشرى المقدمة ص ٣ .

ونثرا، ومما قاله فى ذلك :

أقرت بى الآداب أصلا لها ومن رأى مشرفيات جحدن المشارفا

وديوان منظومى يريك بدائعا وديوان منثورى يريك طرائفا(١)

تلاميذه:

وكما كان الزمخشرى مؤلفا عظيما بمؤلفاته الكثيرة كان أستاذا ذائع الصيت له تلاميذه الكثيرون ، عرفوا له قدره العلمى والأدبى فحرصوا على الأخذ عنه والسماع منه وطلب إجازته.

فقد روى عنه أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلى بطبرستان، وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز بأبيورد، وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاذلى بسمرقند، وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم، وجماعة سواهم .(٢)

وتتلمذ له **أبو الفضل محمد بن أبى القاسم** بايجوك البقال الخوارزمى الملقب زين المشايخ النحوى الأديب، أخذ عن الزمخشرى الفقه وعلم الإعراب وسمع منه الحديث وخلفه فى حلقته العلمية وقد توفى فى سنة ٥٦٢هـ . (٣)

وضياء الدين المكى وهو أحب تلاميذ الزمخشرى إليه ، وله كفاية النحو فى علم الإعراب وهو شرح للأنموذج .(٤)

وأبو الحسن القمرانى الخوارزمى، الملقب حجة الأفاضل على بن محمد بن على وقد قرأ على الزمخشرى الأدب وسمع منه الحديث وكان يذهب مذهب الرأي والعدل.(٥)

والموفق بن أحمد المكى الخوارزمى، مؤلف مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، ومناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كان فقيها أديبا له خطب وشعر ، أصله

١- الديوان ١٨٨ . ٢- الأنساب ٢٧٧ .

٣- معجم الأدباء ١٩/٥ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٢٣٩/٥ .

٤- تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٢٨٣/٥ .

٥-معجم الأدباء ٦١/١٥ ، ٦٢ .

من مكة، وأخذ العربية عن الزمخشرى بخوارزم وتولى الخطابة بجامعها وتوفى سنة ٥٦٨ هـ .(١)

ومن شعره فى مدح أستاذه الزمخشرى :

لسانُك غواص ، ولفظك لؤلؤ وفكرُكَ بحرٌ للفضائل طامى(٢)

وعُلَيّ بن عيسى بن حمزة بن وهاس، من شرفاء مكة وأمرائها ، وكان ذا فضل غزير، وله تصانيف مفيدة وقريحة فى النظم والنثر مجيدة ، قرأ على الزمخشرى بمكة، وبرز، وصرفت أعنة طلب العلم إليه .(٣)

ومن شعره الذى يمدح الزمخشرى به :

وكم للإمام الفرد عندى من يد وهاتيك عندى مما قد أطاب وأكثرا

أخى العزمة البيضاء والهمة التى أنافتْ به، علامةِ العصرِ والورى

جميع قُرى الدنيا سوى القرية التى تبوأها دار ا فِداءُ زَمخشرا(٤)

ومنه كذلك :

أتى حرم الله العظيمَ مجاورا فلله ما أدنت جِمالٌ وأينق

فمن حوضه عبتْ ظِماء ذوى النُّهَى فآبت رِواءً وهو ملآن يفهَق(٥)

وللزمخشرى فيه مدائح كثيرة تضمنها ديوانه وأطلق عليها «الوهاسيات» .

والقاضى أديب الملوك أبو إسماعيل يعقوب بن شيرين الجندى، قال عنه الزمخشرى : «أفضل الفتيان فى عصره وأعقلهم وأذكاهم ، وكان كاتب سلطان خوارزم ، فاستعفى ، وهو يكتب باللسانين العربية والفارسية ويحسن ، وهو

١- الفوائد البهية ٤١ والإعلام ٨/٢٨٩ .

٢- أزهار الرياض ٣/٢٩١ .

٣- معجم الأدباء ١٤/٨٥.

٤- أزهار الرياض ٣/٢٨٩.

٥- المرجع السابق ٢٩٠ .

ممن ربيت وخرجت ، وبلّغت تلك الذروة ، وهو أوثق سهم من كنانتى» (١)

وله شعر يثنى فيه على الزمخشرى ومجالسه العلمية ومنه :

فتى سارفى الآفاق ركبانُ ذكره ... مغربةً طورا وطورا مشرّقهْ

إذا حلَّ فى أرض أتاه فحولُها ... تفيدُ علوما حوله متحلقهْ

وإن خاض فى شرح العلوم رأيتها ... لفرط احتشام من معاليه مُطْرقه

فليس له فى كل شرق ومغرب ... نظير، بنو الدنيا على ذاك مُطْبقة(٢)

وطلب الاجازة والرواية من الزمخشرى الحافظ السلفى(٣) وأم المؤيد زينب بنت الشعرى(٤) ورشيد الدين الوطواط(٥) ومن شعره فى الزمخشرى :

لقد حاز جارُ الله دام جماله ... فضائل فيها لايشق غبارُه

تجدد رسم الفضل بعد اندراسه ... بآثار جار الله فالله جاره(٦)

وكان الزمخشرى جديرا بأن يفخر فى شعره بأستاذيته لهؤلاء التلاميذ الذين يرتحلون إليه من شرق البلاد وغربها، يسمعون منه ويقرأون كتبه، ومما قاله فى ذلك :

وسُمّيتُ بين العرْب والعجْم رُحلة ... إلى يُزَجّون المَطِىّ عواسِفا

يؤمُّون قذّافا بأشياءَ لم تكن ... بأمثالها خُضْرُ البحور قوادِفا

تزان حواشى الكتب منها بزُخْرف ... تراه فتنسَى الرائعَ المتناصفا

أمالٍ كآمالٍ أتتك فُجاءةً ... فأصبحتَ مَغبوطا وقد بِتّ لاهِفا

١- أزهار الرياض ٣/٢٨٦ . ٢- المرجع السابق ٢٩٢ .

٣- سبق التعريف به .

٤- كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء، وأخذت عنهم رواية وإجازة منهم الزمخشرى . وفيات الأعيان ١/٢٤٧ .

٥- أديب وكاتب وشاعر ولد ببلخ ومات بخوارزم سنه ثلاث وتسعين وخمسمائة من الهجرة معجم الأدباء ٩ / ١٢٩ . ٦- المرجع السابق .

ألم تر أنى – حيثما كنتُ –كعبةٌ يَحفُّون بى كالطائفين طَوائفا

فشرقيُّهم يهوى إلى النورِ قابسا وغربيُّهم يسعَى إلى البحر غارفا(١)

ويقول واصفا احتفاء تلاميذه من مكة به حين يقبل عليهم :

متى أقبل العلامة انتفضوا له وحيَّوْه ، حيّا الله تلك المعارفا

وهَشُّوا إليه باسطين أسِرَّةً بماء الحياء الهاشمى نواطفا

كركْبِ عطاش بعد يأسٍ تباشروا بأن أبصروا ذاهيدب متكاثفا(٢)

١– الديوان ١٩٠ . ٢– الديوان ١٩١ .

الفصل الرابع

معالم شخصيته(١)

لايكتمل التعرف على الزمخشرى إلا بالتعرف على ماكانت تمتاز به شخصيته من سمات تعد معالم لها .

ومن تلك المعالم التى اتصفت بها شخصيته ، وكان لها أثرها فى شعره:

١ - شغفه بالعلم والأدب:

عشق الزمخشرى العلم والأدب منذ صغره ، وعاش لهما طول حياته دارسا ومصنفا ومعلما ، وقد سبق الحديث عن ذلك بكثير من التفصيل .(٢)

وأضيف هنا أن شعر الزمخشرى قد عكس هذا الشغف ، وكان فى تعبيره عن ذلك صادقا كل الصدق .

من ذلك قوله يذكر هيامه بالبحث العلمى وحبه الجلوس إلى العلماء النحاريرِ:

إذا التصقتْ بالبحث فى العلم ركبتى ... بركبة نحرير على الجدّ دأّاب

فإن دام لى عونُ الإله على الذى ... أعانيه من فضل وبرٍّ وآداب

وإن نظرت عينى على الودّ والصفا ... مع البر والتقوى نواظر أحباب

فقل لملوك الأرض يلهوا ويلعبوا ... فذلك لهوى ماحييتُ وتلَعابى(٣)

ويقول عن متعته التى يجدها فى تنقيح العلوم ، وحل عويصها، والكتابة فيها :

سهرى لتنقيح العلوم الذّ لى ... من وصْلِ غانية ، وطيب عناق

وتمايلى طربا لحلّ عويصةٍ ... أشهى وأحلَى من مُدامة ساقى

١- فى كتاب «الزمخشرى» للدكتور أحمد الحوفى فصل عن معالم شخصية الزمخشرى (٦٤-٩٨) وسوف أركز فى حديثى هنا على تلك المعالم التى كان لها صداها فى شعره ، ذاكرا منه مايصور ذلك .

٢- انظر ما سبق فى من هذه الدراسة .

٣- ملحق الديوان ٥٣٥ .

وصـريـر أقـلامـى عـلـى أوراقـهـا أحـلـي مـن الـدوكـاء والـعـشـاق

وألـذ مـن نـقْر الـفـتـاة لِدُفـهـا نـقْرى لألـقـى الرمـل عـن أوراقـى(١)

ويقول مبينا مايجده من الأنس حين يخلو إلى قلمه وكتبه، فيجد فيهما ما يعينه فى عزلته، بعد أن افتقد من يرتضى مخالطته من الناس :

وعـيـدان أبـنـاء الـزمـان عـجـمْتُهـا فـلـم يُلْفَ مَرْضِيٌّ ولا مـتـخـيَّرُ

فـخيّمتُ فى بـعض الـزوايـا يعُيـننى عـلـى الأنْس مسودُّ الـقـوائم أصـفـرُ

جـهـولٌ لـمـا أظـهـرتُه ، غـيْر أنّه يُتـرجـم عـمـا فـى فـؤادِىَ مُضْمَرُ

وملأى مـن الدُرّ الـذى لم يَغُصْ عـلـى فـرائـده إلا الـنُهَى والـتـفـكُرُ

مُمَسَّحـةُ الأطـراف بـالمُرْهَفِ الـظُبَى مُحبَّرة الأوسـاط تُطْوى وتـنـشـر(٢)

٢ – ورعه:

كان الزمـخشرى على جانب كبير مـن الصلاح والورع ، مـحباً للديـن ، غيورا عليه . فصـاحب مفتاح السعادة يقـول عنه «كان من الورع وقيام الـليل ، وتدريس العلم فى الرتبة العليا» (٣)

وابن حـجر الـعسقـلانى وهـو من مـخالفيه فـى الاعتزال اعـترف لـه بالـصلاح فقال:

«صالح لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله فكن حذرا من كشّافه »(٤)

ونشـأة الزمـخشـرى وحيـاته ومـؤلفـاته كـلهـا تؤيـد هذه الـشهـادة، وقد سـبق الحديث عنها بكثير من التفصيل .

وأضـيف هـنا أن الـوجـدان الديـنى يـبرز واضـحـا فى مـعظـم شـعره بـأغراضـه

١– ملحق الديوان ٥٣٩ . ٢– الديوان ٨٣ .

٣– مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٢/١٠٠ .

٤– لسان الميزان ٦/٤ .

المتنوعة، فحين يفخر يذكر الحياء والعفة وإيثار الحلال وتجنب الحرام، فيقول :

وأورثنى ثَوْبَىْ حياء وعفّة ... جُدد ودّ كرام ، والمواريث تُذْخَرَ(١)

ويقول :

إلىّ دَنِيّاتُ الأمورِ بغيضةٌ ... وقد نال منى كُلّ حب جِسامُها

وأبغى من الأشياء ماكان مطْلقا ... حلالا ، وهل يُجدى علىّ حرامُها ؟

وكأس يروح البدرُ دون بريقها ... وفوق شعاع الشمس يغدو مُدامُها

حمأنى حُمَيّاها صداى إلى التى ... يقول لها ذو العرش: مِسْكٌ خِتامها(٢)

وحين يشكو نجد فى شكواه الغيرة على الدين والخلق ، والأسى لما حل بهما فيقول :

هذا وإنّ أحقّ البائقات بأنْ ... تُبيت أهلَ النُّهى مستشعرى الكَمَدِ

مآثمٌ رُكِبَتْ حتى اسْتُحِقّ بها ... ماحل بالناس من شؤم ومن نكَدِ(٣)

وحين يهجو يذم فى من يهجوهم الشح المطاع، والهوى المتبع فى الدين، والفسق الصراح، وأمثالها مما تؤلم رجل الدين الغيور على قيمه وأخلاقه، فيقول:

شحٌّ مطاع ، هوى فى الدين متّبَعُ ... فِسقٌ صُرَاح ، قلوبُ الغِلّ والحسد

لاخَصْلَةٌ من خِصال البر واحدةٌ ... لاهِمّةٌ لا تُقى لاخيرَ فى أحد(٤)

وحين يمدح يُشيد بورع ممدوحه وعزوفه عن مواطن اللهو، فيقول :

وذو ورع لا ألكأسُ تعرف كفّه ... ولاكفه الشّطْرنجَ تعرف والنردا(٥)

بل إن هذا الوجدان لايتوارى حتى فى غزله ، فنجده يقول فيه :

أتبز عن عطْفى رداء الدين ... أجيادُ غِزْلانٍ وأعينُ عِين(٦)

١- الديوان ٨٤ .
٢- الديوان ٥٥ .
٣- الديوان ٢٦١ .
٤- الديوان ٢٦١ .
٥- الديوان ٢٥ .
٦- الديوان ٣٤٧ .

ويقول:

عِفتُ الهوى وعفتُ عنه واقيا ... عِرْضِى بدرْعٍ من تقاى رَصين(١)

ويقول :

ويجمعنى وإياها وِصالٌ ... على أن الوِصالَ مع البقيهْ

فما ثَلمت إذَنْ دينى وإن لَمْ ... تزلْ كَبِدى لَمُقْلَتِها رَميّهْ

قبيح بى إلى الفضل انتسابٌ ... وإلمامٌ بأفعال رديّه

لفقتُ مُروءتى بالدين لفّاً ... فدينى والمروءة لى سجيه(٢)

ولست بحاجة إلى أن أذكر أمثلة لظهور الوجدان الدينى فى شعر الرثاء أو الزهد أو الحنين إلى مكة أو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الدين فى هذه الأغراض يمثل المادة الأساسية للفكر ، والنبع الفياض للوجدان ، وهو فيها أظهر من أن يستشهد له بنموذج أو أكثر، فكلها تصلح نماذج للاستشهاد على وجوده فيها .

٣- طموحه وقوة إرادته:

الطموح وقوة الإرادة مَعْلمان بارزان فى شخصية الزمخشرى ، عرفناهما فيه منذ صغره ، وظهر أثرهما بارزا فى سلوكه طَوال حياته، ثم فى تفوقه ونبوغه فى ميدانى العلم والأدب .

وبين الصفتين ارتباط وثيق ، فالطموح يحركه فى طريق آماله ، ويغريه بتحمل الصعاب فى سبيل الوصول إلى هذه الآمال ، وقوة الإرادة تمده بالطاقة التى تعينه على تحمل تلك الصعاب ، وتنصره على دواعى الراحة والتكاسل .

عرفنا الصفتين فيه صغيرا، ضعيف الجسم، مهيض الجناح، يشفق عليه أبوه من الاغتراب لطلب العلم، وهو يصر على السفر قائلا لأبيه : احملنى إلى البلد واتركنى هناك .(٣)

١- الديوان ٣٤٧ . ٢- الديوان ٢٧٩ . ٣- انظر ٤٤ من هذه الدراسة .

وعرفناهما فيه شابا، يقتحم مجالس كبار الدولة، ويتقدم إليهم بما حصل من علم وأدب ، وماعُرِف به من فضل وكفاءة، طالبا أن ينالَ حقه فى مجتمعه ، ويُعْرَفَ له ولأمثاله من الفضلاء قدرُهم .(١)

وعرفناهما فيه شيخا، يطمح إلى عفو الله ورضائه والظفر بجنته ، فيتجه إليه بكل قوة معرضا عن كل مايشغله عنه ويختط لنفسه حياة جديدة، فإذا هو الزاهد الناسك الذى يعاف عطايا الملوك، ويترفع عن مدحهم، ويترك وطنه الحبيب إلى قلبه مهاجرا إلى مكة؛ ليقيم فى جوار البيت الحرام منقطعا للعبادة والعلم ، مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم ، متغنيا بحياة الزهد والصلاح .(٢)

وعرفناهما فى حياته العلمية والأدبية، وكان من أثرهما هذه المؤلفات التى تشهد بكثرتها وتنوع فنونها على ماانتهت إليه هذه الشخصية من تفوق ونبوغ ، وعلى ماتسلحت به لذلك من طموح وقوة إرادة .

وهو يحدثنا عن عزة النفس وبعد الهمة حديث الخبير بهما الذى عشقهما رغم وعورة طريقهما وكثرة ماحف به من الخطوب، فيقول : عزة النفس وبعد الهمة الموت الأحمر والخطوب المدلهمة ، ولكن من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب العز وزعافه ، ومن لم يصطل بحر الهيجاء لم يصل إلى برد المغنم ، وتحت علم الملك المطاع ذكر السيوف والأنطاع .(٣)

وشعره يسجل فى مواضع كثيرة اتصافه بهاتين الصفتين ، وإعجابه بهما .

فحين يذكر نعم الله عليه لاينسى ماطبَع عليه نفسهَ من علوالهمة والعزة، فيقول :

وركّب فيما بين دفّيّ همّةً ... وعزّةَ نَفْس تُبْغضان السفَّاسِفا

ولكن عليّاتُ الأمور وشُمُّها ... وإن كنتُ خوّاضا إليها المخاوفا(٤)

١- انظر ٥٦-٦٢ من هذه الدراسة .
٢- انظر ٦٧ - ٧٠ من هذه الدراسة .
٣- أطواق الذهب ٢٤ .
٤- الديوان ١٩٢ .

وقد عشقت نفْسه عظام الأمور ، وهامت بأسباب المجد ، فإذا حاول أن يكفكف من طموحها، وأن يردها إلى القناعة والرضا بالواقع، إيثارا للراحة، فإنها تنفر منه وتسرع ساعية إلى المجد، غير عابئة بما تتعرض له من الطوارق والخطوب. ويتحدث عن ذلك فى شعره، فيقول :

زجرتُ عن العلا نفسى فزفّت ... كما سبقت يدَ الساقى الذَنُوبُ
مواشكةً فلو جُنِبت إليها ... لَعَيَّبَ أن تعارضها الجَنوبُ
تَهُبُّ مع العواصف ثم تبقَى ... حَسيراتٍ، وجدٌ بها الهبوبُ
فواهاً للتى اجتنحتْ عليها ... ضُلوعى ، إنّها لَهِيَ الكذوب
سعتْ للمجد خَفّاقا حشاها ... تطاوحها الطوارق والخطوب(١)

وحين يتحدث إلى حبيبته يذكر جده وصلابته ومضاء عزيمته، فيقول :

إنى لذو جدّ كما جرّبتنِى ... صُلْبٌ وبعض الناسِ رَخْوٌ فاترُ
إن عنّ لى أمر فلى عن رَفْضه ... ناهٍ ، وبالإطناب فيه آمرُ
فإذا عزمتُ - على تخاذل نهضتى - ... أمضى العزيمةَ جَدّىَ المتناصرُ(٢)

وحين تدعوه الحبيبات إلى الوصل لايظفرن منه بما يردن ، لأنه قد آثر عليهن جسيمات المعالى ، فعشقها، وهام بها، وعاش لها، كما يقول :

دعتنى إلى الوصل الدُّمَى غير أنّنِى ... حمانى جوابَ الداعياتِ التحرّجُ
ونفسٌ جسيمات المعالى يشُقْنها ... إذا غَزَلٌ شاقته خُودٌ وهودجُ
لها هِمَمٌ لو أنّهُنَ كواكبُ ... لما وسعت تلك الكواكبَ أبرجُ(٣)

وحين يتحدث عن كثرة أسفاره يذكر أنه يجهّز نفسه لابتغاء علوها بهذه الأسفار، فيقول :

١- الديوان ٢٦٨ .
٢- الديوان ٣١٣ .
٣- الديوان ٣٩ .

وماضربىَ البلدان أبغى تجارةً ... بلى إننى أبغى التجارة فى الخير
أجهِّزُ نفسى لابتغاء علوِّها ... ومامثلُ ماأبغى يقومُ به غيرى(١)

وفى حديثه عن هذه الأسفار يبرز لنا قوىّ النفس ، عالى الهمة ، بعيد المطمح صلب الإرادة ، ماضى العزيمة ، لاتثنيه الصعاب والمخاطر عن المضى إلى آماله ، ولاتغريه الراحة بالتقاعد والتكاسل .

نجد ذلك فى قوله متهيئا للترحل، طالبا من فتاه الإعداد له :

قرِّب قلوصى للترحُّل يافتى ... هذا القرار على الهوان إلى متى
لابد من إصْلات سيف العزم لا ... يفرى الطُّلَى الصَمصامُ إلا مُصْلتا
إن سرتُ عن عرصات قومى لم أكنْ ... لأعيرهم من أجْدَعىّ تلَفتَا
من يجمع الأملَ المشتَّتَ لم يبَلْ ... أن يترك الشملَ الجميع مشتَّتا
أنا إن رققتُ رأيتَ ماء غمامةٍ ... فإذا قسوتُ رأيتَ صخْرا مُصْمَتا
إلا أدعْ خُوَّارزم خلفَ ذميلها ... لايدْعنى قومى الفتَى كلَّ الفتى
ليس العواطسُ إنْ رحلتُ مبكرا ... بمثبِّطاتى ، بل أمر مشمتا
لولا مماطلةُ الزمان تقدمى ... ماكان سيرى بالربيع موقتا
أبِأنْ أُمنَّى القوتَ أقعدُ راضيا ... لاكان من يَرْضَى بأن يتقوتا(٢)

وفى موقف شبيه بهذا الموقف يقول لصاحبيه :

يَسِّراها بالكُورِ والأنْساعِ ... مارِباعُ الهوانِ لى برباع
إنّ سيْرى فى السَّهْب والقاع خيرٌ ... من قعودى شبيهَ نقع بقاع
رعْىُ روضِ المنى على الحرِّ عارٌ ... إن روضَ المنى وَخِيمُ المراعى
ليس يأوى إلى القناعة إلا ... عاجزٌ لايطيق كشف القناع

١- الديوان ٣١ .
٢- الديوان ٣٣٢ .

ولوَ انَّ الظباء خيرن ما اختر ن سوى أن يكن بعض السِّبَاع(١)

وتمضى الأبيات جياشة بهذه الأحاسيس المتقدة طموحا وكبرياء، تفيض بها نفس تعشق المعالى ، وتعجب بالقوة والشجاعة ، وتنفر من الضعف والجبن ، وحتى حديثه عن الزهد نرى فيه همة الزاهد القوية التى سمت به، فترفع عن الدنيا ومتعها ، يقول راسما بعض ملامحه:

مازال يستحقر الدنيا بهمته حتى ترقت إلى الأخرى به همه

فذاك أعظم من ذى التاج متُكَئا على النمارق محتفاً به حَشَمَهُ(٢)

٤- عزة نفسه:

ومامنزل الإذلال للحر منزلا وإن كان عيش الحر فيه رغيدا(٣)

لم تكن هذه الحكمة إلا تعبيرا صادقا عن قيمة خلقية اعتز بها الزمخشرى ، فهو عزيز النفس لايقيم على ضيم ، ولايتردد فى أن يترك أحب مكان إلى نفسه إذا لحقه فيه أدنى هوان ، فالكرامة عنده قبل كل شئ ، إنه يحب خوارزم مسقط رأسه ومسرح صباه ومهد ذكرياته ، ومع هذا فقد كان كثير الرحيل عنها إلى غيرها، باحثا عن العزة التى طلبها فيها فلم يجدها هذا ما يعبر عنه فى قوله :

أحبُّ بلاد الله شرقا ومغربا إلىَّ التى فيها غذيتُ وليدا

ولكن تواسى بالكرامة غيرُها وهذى أرى فيها الهوان عتيدا

فلا كنتُ - إن خيمتُ فيها - ابنَ حرَّة ولاعِشتُ بين الصالحين حميدا(٤)

ولم تكن طَلَبَةُ الشاعر سهلةَ المنال ، إنه يطلب الكرامة للعلم والعلماء، والتقدير للفضل والفضلاء، وأنّى له ذلك فى عهد يقول فيه :

ترى ملُكا أشمَّ ولا افتقادٌ لأهل الفضل فيه ولا اصطناعُ

ترى الصنَّاج تنفعه يداه وليس لعالِم بهما انتفاع(٥)

١- الديوان ٤،٩٢ . ٢- ملحق الديوان ٥٤٦ . ٣- الديوان ١٥٤ .
٤- الديوان ١٥٤ . ٥- الديوان ٢٧٣ .

فلا عجب إذا رأينا الشاعر كثير التَّرحال ، لايقرُّ له قرار ، ينتقل من بلد إلى آخر، فإن لم يظفر بالكرامة فحسبه أن يَفر من الهوان :

مستديمُ الأسفار قد أكلته ... مثلما تأكلُ الليالى الأهلّه
كلَّ يوم ركابُهُ مُثْقَلاتٌ ... كلَّ يوم خِيامُهُ مُسْتقلّه
ماتذرى السَّنامَ من لم تُثِرْه ... غيْرةُ النفس عن مقام المَذَلّه(١)

لقد ابتلى فى عصره بكثير من اللئام البُخلاء الذين يكثرون المنَّ على قليل العَطاء ، وللشاعر نفس أبية تؤثر المنية على معايشة هؤلاء اللئام وسماع منّهم ، فلا أقل من أن يرحل عن ديارهم ناجيا بعزة نفسه أن يمسها هوان ، يصور ذلك فيقول :

وإنَّ المنَّ من نفر لئام ... أمرٌّ لدىَّ من طعْمِ المنيّه
يقل عطاؤهم والمنُّ جمٌّ ... فلا كانوا ولا كان العطيّه
إذا ضعَةٌ عرتنى فى مكان ... وضعتُ الرحْلَ فى ظهْرِ المطيّه
وما دار المذلة لى بدار ... أبت لى ذلك النفسُ الأبيَّه(٢)

وهو يكره التملق ويعده دناءة يصون نفسه عنها على ما نجد فى قوله :

ولستُ بزوّار الرجال تملُّقاً ... وركنِىَ عن تلك الدناءة أزور(٣)

فلا عجب إذا عاش الشاعر فقيرا على كثرة أفضاله وقلة مسئولياته :

غنىٌّ من الآداب ، لكننى إذا ... نظرت فما فى الكف غيرُ الأنامل(٤)

ولايضيره أن يبيع أرضَه، فحسبه أنه محافظٌ على عرضه وكرامته :

قد أصبحت جارتى تجهّلُنِى ... غداة أصبحْتُ بائعا أرضى

١- الديوان ٥٠٨ .
٢- الديوان ٢٧٩ .
٣- الديوان ٨٤ .
٤- الديوان ٧٠ .

فـقـلـتُ مـاصـفـقـتـى بـخـاسـرةٍ أبـيـعُ أرضـى وأشـتـرى عِرْضـى(١)

فما أصدقه حين قال عن نفسه :

تُثَبِّطُنـى عـن مـوقـف الـذُلِّ هِمَّةٌ إلـى جـنـبـهـا خَدُّ الـسِّمـاك مُعَفَّرُ

وعزةُ نفس تركب السيفَ مُرْهفا وتسمعُ حِسًّا من هوان فتنفرُ(٢)

٥- حبه العرب ومعارضته الشعوبيين

عرف الزمخشريُّ بحبه الشديد للعرب، وبقوة معارضته لمذهب الشعوبية(٣) على الرغم من أنه فارسى الأصل ، ولا أجاوز الحقيقة إذا قلت: إنه كان يتعصب للعرب ويفضلهم على الفرس ، وقد صرح بذلك فى المقدمة التى كتبها لمفصّله حيث يقول : «اللّه أحمد على أن جعلنى من علماء العربية والعصبية ، وأبى لى أن انفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يُجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنّة الطاعنين» ثم يقول : «ولعل الذين يَغُضُّون من العربية ، ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا مارفع الله من منارها، حيث لم يجعل خِيرة رسله وخيرة كتبه فى عَجَم خلقه، ولكن فى عربه لايبعدون من الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيفا عن سواء المنهج ، والذى يُقْضى منه العجب حالُ هولاء فى قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم.... ».(٤)

ثم يمضى فى هذه المقدمة يرد على الشعوبيين تهمهم بالحجج القوية.

وهذه الروح من حبه للعرب ولغتهم ، وتفضيلهم على الفرس نجدها فى أكثر من موطن فى شعره ، وقصيدته التى سماها «العربية»(٥) حافلة بالإشادة بالعرب وأخلاقهم ، وبالتنويه بما شرفهم به الله حين اختار أفضل رسله منهم ،

١- الديوان ٤٨٨ . ٢- الديوان ٨٣ .

٣- انظر تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ٤٥٩ .

٤- المفصل فى علم العربية ، مقدمة الكتاب للزمخشرى ٢ ، ٣.

٥- الديوان ١٢ .

وجعل لغتهم لغة القرآن الكريم فكتب لها المجد والخلود ، بل إنه يذكر هزيمتهم للفرس فيقول فى هذه القصيدة :

وهمْ فرسوا أبناء فارس كلّهم بأنيابهم وهى الرماحُ المداعس(١)

ويذكر ترفع النعمان بن المنذر عن مصاهرة كسرى؛ لأنه لم يجده كفئا له، فيقول :

وعن صهر كسرى صد نعمانَ بأوُهُ فخنقّه فى خانقين الفوارِسُ

وهان عليه يومهُ قبل ساعة يُكابد فيها صِهرَ من لايجانس(٢)

ويرد على الشعوبيين مذهبهم، فيقول :

وقلُ للشعوبيين إنّ حديثَكمْ أضاليلُ من شيطانكم ووساوسُ

لكم مذهبٌ فلّ يُغرَّ بمثله أشائبُ حَمْقى لا الرجالُ الأكايِس(٣)

٦- حبه لآل على وبغضه لبنى أمية:

ليس فيما بين أيدينا من الكتب مايدلُّ على أن الزمخشرى كان متشيعا، لكن قارئ شعره لايخفى عليه مايخص به الزمخشرى عليا كرم الله وجهه وآله من حب وتعاطف ، ومايكنه لبنى أمية من بغض وكراهية؛ لأنهم غدروا بالرسول وآله، واغتصبوا الإمامة بلا حق، كما يقول.

فحين يذكر حبه للرسول صلى الله عليه وسلم يقرن به حبه لعلى، فيقول:

كثر الشكُّ والخلافُ فكل يدّعى الفوز بالصراط السوىّ

فاعتصامى بلا إلهَ سواه ثم حُبى لأحمدٍ وعلىٍّ(٤)

وحين يمدح ابن وهاس يذكر نسبه إلى الرسول وصنوه ووصيه على بن أبى طالب وزهرائه فاطمة البتو، فيقول :

١- الديوان ١٤ . ٢- الديوان ١٥ .

٣- الديوان ١٥ . ٤- ملحق الديوان ٥٤٩ .

ومن يـــكن ابـــنا للرســـول وصـــنوه وزهرائه لم يأل فخرا وسؤددا[1]

ويقول :

زكـى الـعـرق نـاطـتْـه عـرق زواك بـالـبـتـول وبـالـوصـى[2]

وحتى فى نسيبه نجده يتمثل بما حل بعلى وبالحسين على يدى المرادى والكلابى، فيقول :

سـامـنـى قـتـلَ الـمـرادىِّ عـلـيـنـا والـكـلابـىِّ الحـسـيـنَ بـن عـلـى[3]

وحين يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويتحدث عن حرب قريش لاينسى أن يشهِّر بأبى سفيان عميد البيت الأموى الذى قاد هذه الحرب ضد الإسلام قبل أن يدخل فيه، فيقول :

كـــم أوقـــدتْ بـغـــويّهـا صـــخْرِ بـن حـرْبٍ حـــربهَـا[4]

ثم يذكر غدره هو وزوجه هند وذريته من بعده ، وما أصاب الإسلام وآل الرسول على أيديهم، فيقول :

ودلـى أبـو سـفـيـان خـلـف قـذالـه عقيصة غدر ، أين عنها العقائص ؟

لـقـد عـقـصـتـهـا هـنـدُ ثـم بَنِيُّهـا مع ابن أبيه وهو صنوٌ مخالص

ونـاشـت عـلـى أقـفـاء ذرّية طـمـت بآل رسـول الـلـه مـنـهـا الـعـوائـص

ومـالـقـى الـسبْطان مـنـهـم كَفَـى بـه مُصابا له صَدْعٌ إلـى الشُّم خالص

وبـاضـت مـرارا فـتـنـة جـاهـلـيـة فكان لـهـا فـى آل مـروان فـاقـص[5]

وحين يمدح الخليفة العباسى، يذكر أن الإمامة حين انتقلت إلى العباسيين استقام منها ماكان قد اعوج على أيدى الأمويين الذين اغتصبوها ثمانين عاما،

١- الديوان ٢٠ .
٢- الديوان ٢٦٦ .
٣- الديوان ٤٤١ .
٤- الديوان ٣١١ .
٥- الديوان ١١ .

فيقول :

وكان التوى ركن الامامة قبلهم فلما تولوها استقام المعوَّجُ

أقامت بلا حق ثمانين حجَّةً يُعالجها من نسل مروان أعْلَجُ(١)

ولعله كان من معتدلى الشيعة الذين نهوا عن ذم الصحابة ، وجوزوا إمامة المفضول من غير ذرية على بن أبى طالب على الأفضل من ذريته ، ولم يشترطوا فى الإمام الا أن يكون كريما سمحا عادلا شجاعا(٢)

فهو مع ولائه لعلى وآله كان يجل الصحابة كلهم ، وكتابه خصائص العشرة الكرام البررة يدل على ذلك، لأنه يبحث فيه خصائص العشرة المبشرين بالجنة ، وقد جمعهم هذان البيتان اللذان صدر بهما كتابه :

لقد بُشِّرتْ بعد النبى محمد بجنة عدن زمرة سعداء

سعيد وسعد والزبير وعامر وطلحة والزهرى والخلفاء

ولعل مما يرجح تشيعه أنه كان معتزليا ، والصلة بين المعتزلة والشيعة معروفة من قديم(٣).

٧- اعتزاله:

اعتنق الزمخشرى مذهب الاعتزال(٤) ، وكان فى ذلك متأثرا ببيئته خوارزم، وأستاذه أبى مضر .

وكان قويا فى اعتزاله يجاهر به فى افتخار ، حتى إنه كان إذا طلب الإذن فى

١- الديوان ٤١ .

٢- هذه الفرقة المعتدلة من الشيعة هى فرقة «الزيدية» انظر تاريخ الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف ٢٦٨/٥ ، ٢٦٩ .

٣- المرجع السابق ٢٦٦ ، ٥٧٦ .

٤- عن نشأة المعتزلة ، وأصول مذهبهم ، وتأييد الزمخشرى له ، انظر: الزمخشرى للدكتور أحمد الحوفى ١١٢ - ١٦٦ .

الدخول على أحد قال لخادمه : قل له : أبو القاسم المعتزلى بالباب[1] ، وكان شديد الإنكار على المخالفين للمعتزلة من أهل السنة ، كثير التشنيع على المتصوفة ، جريئا فى الطعن على أولياء الله فى الكشاف وغيره من مصنفاته[2].

وعن اعتزال الزمخشرى يقول الدكتور أحمد الحوفى : وليس من التزيد فى شئ أن نصف الزمخشرى بأنه كان أبرع المعتزلة تأويلا للأيات القرآنية ، لتطابق مذهبهم، ومن حقه أن نُشيد بأنه ماكان يريد من هذا التأويل الذى عنَّى به نفسه إلا أن ينزه الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تتسرب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة، فقد كان الرجل عميق التدين عميق الإيمان ، عظيم التقوى غيورا على الإسلام أشد الغيرة .[3]

وفى شعره مايدل علي أنه كان فى مجالسه العلمية يدرس مبادئ الاعتزال وأصوله ، ويناظر خصومه فى تعصب شديد .

يتجلى ذلك فى قصيدة له يمدح فيها ابن وهاس ، ويشكر له وقوفه بجانبه ينصره ، ويدفع خصومه ، وفيها يقول :

وقل ياأمنع الثقلين جارا ... جزاك الله عن شيخ أَتِىٍّ

بعيدِ المستلاذ كليلِ ظُفْر ... عن الأنصار فى بلد نَطِىٍّ

غضبتَ له وذلك نبضُ عرقٍ ... كريم غضبة النِّمرِ الأبِىِّ

زأرتَ وراء دين العدْل زأراً ... وقد نبحتْ كِلابُ المغربىِّ

فقد أشجيتَهُنَّ بكلُ عظْم ... تنشَّب فى اللهاة وفى المَرِىِّ

ومن يغضُب لدين الله يجمع ... مراضيه إلى الأجر السنى

١- انظر مفتاح السعادة ٢/٩٧ ، وشذرات الذهب ٤/١٢٠ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٩ ، والطبقات السنية ٤/١٢٥ ، وبغية الوعاة ٢/٢٧٩ .

٢- انظر ربيع الأبرار ونصوص الأخبار مقدمة المحقق ١/١٥ .

٣- الزمخشرى ٢٩٨ .

ولـيـس الجـبـرُ والـتـشـبـيـهُ إلا بـقـيـة إرْثِ ديـن جـاهـلـى

فـقـم بـالـعـدل والـتـوحـيـد فـيـه تُقِمْ يـابـن الـنـبـى هـدى الـنـبـى(١)

ولعل حدةَ هذا التعصب قد خفت عنده فى نهاية حياته ، لاسيما بعد أن آثر الطريقة «الأويسية» وترك الاشتغال بكل شئ إلا بكتاب الله ، وانقطع للعبادة منتظرا داعى ربه .

وهذا ياقوت يذكر أبياتا فى معجمه، ينسبها إلى الزمخشرى ، وهى تدل على أنه إن لم يكن ترك الاعتزال فقد نأى عن الخوض فيه والتعصب له بعد أن كثر الشك والخلاف وادعى كل فريق لنفسه الصواب ، فقد وجد أن النجاة فى الاعتصام بحبل الله، وحب الرسول وآل البيت . وهذه الأبيات هى :

كَثُر الـشـكُّ والخـلاف فـكـل يـدعـى الـفـوزَ بـالـصـراط الـسـوىّ

فـاعـتـصـامـى بـلا إلـه سـواه ثـم حُبـى لأحْمَـدٍ وَعَـلِـىّ

فـاز كـلـب بـحـب أصـحـاب كـهـف كـيـف أشـقـى بـحـب آل الـنـبـى

وفى حديث المقّرى عنه مايؤيد هذا الاحتمال ، فإنه يقول عنه وهو يتحدث عما أنكره عليه من الاعتزال «وذكر بعضهم أنه تاب» وإن كان هو (أى المقرى) قد استبعد ذلك قائلا : ويأبى ذلك تصريحه فى كشافه بما خالف السنة جهارا ، فإنه لو صح ذلك لمحاه ، أو أشهد على نفسه بالرجوع عما قصده فيه وانتحاه .(٣)

٨- مذهبه الفقهى :

كان الزمخشرى حنفى المذهب ،(٤) وقد افتخر بانتسابه إلى هذا المذهب مبينا أنه ينتقى أساتذته ممن ينتمون إليه فقال :(٥)

١- الديوان ٢٦٧ .

٢- معجم الأدباء ١٢٩/١٩ وملحق الديوان ٥٤٩ .

٣- أزهار الرياض ٣٢٣/٣ .

٤- انظر : مفتاح السعادة ٢ : ٩٧ وبغية الوعاة : ٢ :٢٧٩ وشذرات الذهب ٤ : ١٢١ وقد ترجم له فى الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢ :١٦٠-١٦١

٥- الديوان ٩٣ : ٤٢ ، ٣٣ .

وأسند ديني واعتقادي ومذهبي إلى حنفاء أختارهم وحنائفا

حنيفية أديانهم ، حَنَفِيَّةٌ مذاهبهُم ، لايبتغون الزعانفا

وكان لإمامه أبى حنيفة النعمان مكانة عظيمة فى نفسه مما جعله يحمل مؤلفاته إلى مشهده بباب الطاق فى بغداد، ويقفها عليه كما سبق أن ذكرت .

ومع حبه لإمامه لم يكن متعصبا أو متحاملا على أتباع المذاهب الأخرى، بل كان يجل العلماء أيا كان مذهبهم الفقهى، وله فى الإمام أبى المظفر السمعانى – وكان قد انتقل إلى المذهب الشافعى بعد نبوغه فى المذهب الحنفى(١) مرثية تدل على إجلاله له وتعظيمه لعلمه وإمام مذهبه ، كما يتجلى ذلك فى قوله منها :

أين الذى لو شريْناه لما اخِذَتْ ببعضه هذه الدنيا بأجمعها

أين الذى الفقهُ والآدابُ إن ذُكرتْ فهْو ابنُ إدريسه وهْو ابنْ أصْمَعِها

من للإمامة ضاعت بعد قيِّمها مَنْ للخطابة عَيَّت بعد مِصْقَعِها(٢)

وقد عرض فى كتابه الكشاف لمسائل فقهية كثيرة ، لم يقتصر فيها على مذهبه الحنفى ، بل كان يورد الأحكام فى المذاهب الأخرى ، وكان يرجح أحيانا مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة .(٣)

١– انظر : النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٠ .

٢– الديوان ٢٤٦ .

٣– الزمخشرى للدكتور أحمد الحوفى ١٦٧ – ١٧٤ وقد ذكر سيادته لذلك الكثير من الأمثلة .